13

سلسلة

مَوَازِينُ الْقُرْآنِ

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ



مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
السلسلة: موازين القرآن.
اسم الكتاب: وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ
رقم الكتاب في السلسلة: الثالث عشر.
الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م
© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
ويرحب المركز بإعادة طباعة هذا الكتاب ونشره كما هو، دون تعديل أو حذف أو إضافة، بعد الحصول على موافقة خطية مسبقة من المركز.
هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف – غير تجاري – منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0).
يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه ومشاركته وإعادة نشره لأغراض غير تجارية، مع ضرورة الإشارة إلى صاحب الحقوق والمصدر، وعدم توزيع أي نسخة معدلة أو مترجمة منه دون الحصول على إذن.
رابط الترخيص:
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar
النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب:
https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/otlk-alayam-ndaolha-byn-alnas
لا يشمل الترخيص أي مواد مملوكة لأطراف أخرى إلا إذا صُرّح بذلك.
إعداد السلسلة
مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية
الإشراف العلمي على المركز
أ.د. عبدالله آل سيف
الفريق العلمي للمركز
د. عبدالله سالم باهمام
د. صهيب لولح
د. شادية عبدالله بابكر
إسلام موسى
عادل بافرج
المراجعة والتحكيم العلمي
يتم مراجعة وتحكيم الكتب بمجموعة من الأكاديميين والمختصين
كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًا جمًا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟ — هذا الكتاب
- **إن وعد الله حق**
- **إن هذا القرآن**

مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرّب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤيةً صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة «موازين القرآن»: مشروع تأليفي يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحي مبين تأتي شارحة ومجسدة ومؤسسة للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

ليس موضوع هذا الكتاب النصر والهزيمة بوصفهما بابًا سياسيًا أو عسكريًا فحسب، بل شيء أقرب إلى حياة الإنسان كلها: كيف يقرأ قلبه ما يحدث له وحوله حين تتغير الأيام؟ فالإنسان يستقبل في يومه خبر قوة وضعف، وربح وخسارة، وقبول ورفض، وعافية ومرض، وفقد وعطاء، ويتابع في الشأن العام انتصارًا وهزيمة، واتفاقًا وصراعًا، وصعود قوة وتراجع أخرى. والواقعة قد تكون صحيحة كما رآها، لكن الخطر يبدأ حين تتجاوز في قلبه قدرها، فتتحول النتيجة العاجلة إلى حكم على الحق، أو السبب إلى مالك للمآل، أو ما يحبه إلى تعريف للخير، أو ما يكرهه إلى دليل على أن الأمر خرج عن الحكمة.

وقد يكون الخبر الذي يهز القارئ أبعد من بيته وأقرب إلى قلبه في الوقت نفسه. قد يكون خبرَ جماعةٍ من المسلمين هو واحدٌ منها، أو مشروعِ دعوةٍ وعلمٍ أمضى فيه أعوامًا، أو فكرةٍ يرجو أن تنتشر لأنها عنده أقرب إلى الحق، أو حالِ أمةٍ يحمل همَّها ويؤلمه ضعفها ويفرح بما يظهر من عز الإسلام وخير المسلمين. وحين يكون الإنسان داخل الحدث لا متفرجًا عليه، يزداد احتياجه إلى الميزان؛ لأن الحب الصادق نفسه قد يجعل اللقطة أشد سلطانًا على القلب.

وللداعية خاصةً شهوةٌ شريفة في أصلها: أن يرى دين الله ظاهرًا، والناس أقرب إلى الهدى، والباطل منكسرًا، وثمرة السنين أمام عينيه. لكن هذا الحب يحتاج إلى عبودية كما يحتاج الخوف؛ فالإسلام أكبر من جماعته، والحق أحب إليه من انتصار رأيه، ونصرة الدين أوسع من نجاح الخطة التي اختارها. لذلك يدخل في سؤال الكتاب أيضًا: كيف يحب المؤمن ظهور الإسلام بقوة، ثم يبقى عبدًا لله إذا تأخرت الصورة التي يرجوها، أو جاءت الثمرة من طريق لم يتوقعه، أو ظهر أن في اجتهاده نفسه ما يحتاج إلى مراجعة؟

ومن هنا يأتي سؤال الكتاب: كيف يعلّم القرآن المؤمن أن يرى الحدث كما هو من غير أن يستسلم لحكم اللقطة؟ كيف يأخذ بالأسباب بجدّ من غير أن يعبدها؟ وكيف يبقى وعد الله في موضعه إذا جاءت هزيمة أو طال الطريق، ويرى مهلة الباطل من غير أن يحولها إلى رضا، ثم يوسع بصره من الحاضر إلى المسار والعاقبة من غير أن يدّعي علم الغيب؟ وأخيرًا: كيف تنتهي قراءة الأخبار والأحداث إلى عبودية؛ فيكون للخوف توكل، وللخطأ محاسبة واستغفار، وللفقد صبر، وللعطاء شكر، وللتمكين عمل، وللنصر تسبيح وحمد واستغفار؟

لهذا تبدأ الرحلة من «الاعتبار وبصر القلب»، ثم تمتحن حكم اللقطة في صور متعددة: معركة، وحصار، ومال، وزينة، وحصن، وصلح. وبعد ذلك تضع الأسباب في موضعها، وتقف مع الهزيمة والقتل وتأخر النصر ومهلة الباطل، ثم تنتقل من أسر اللحظة إلى قراءة المسار والعاقبة وذاكرة المآلات، قبل أن تبلغ

السؤال الأخير: ما الذي تعرفه حقًا في الحدث، وما الذي لا تعرفه، وما العبودية التي يطلبها الله منك فيه؟ فالكتاب لا يريد أن يمنح القارئ آلةً لتوقع المستقبل، بل ميزانًا يضبط نظره وقلبه وعمله وهو داخل الحاضر.

وعنوانه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، وليس المراد تحويل «التداول» إلى قانون دوري حتمي لتناوب كل الدول والقوى؛ فسياق الآية المباشر في أُحد، وإنما يتسع سؤال الكتاب من شبكة النصوص القرآنية التي تكشف تغير القوة والضعف، ومحدودية اللقطة، ومكان الأسباب، وصدق الوعد، وسعة العاقبة. والغاية في آخر الطريق ليست أن يعرف العبد متى تكون الأيام له، بل أن يعرف كيف يكون لله في كل يوم: يعمل ولا يركن إلى عمله، يرجو ولا يوقّت لربه، يفرح ولا يبطر، يتألم ولا ييأس، ثم يرد حركة الأيام كلها إلى ربها: العليم، الحكيم، القدير، مالك الملك.

محتويات الكتاب

بوابة: الاعتبار وبصر القلب 1

القسم الأول: لا تحكم من اللقطة..... 4

القسم الثاني: خذ بالأسباب ولا تعبدها..... 16

القسم الثالث: حين يضعف أهل الحق ويُمهل الباطل 24

القسم الرابع: اقرأ المسار بالعاقبة 41

القسم الخامس: ما الذي تعرفه؟ وما الذي تتعبد به في الحدث؟..... 54

خاتمة تطبيقية: مفتاح قرآني لقراءة الخبر..... 60

مسك الختام: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ — حين يبلغ المشهد تمامه 67

بوابة: الاعتبار وبصر القلب

قد تقع الواقعة أمام نظر رَجُلين، فتراها عيناهما على صورة واحدة، ثم لا تقع في قلبيهما على معنى واحد. يسمعان الخبر نفسه، ويشاهدان القوة نفسها، ويحصيان العدد نفسه، ثم يخرج أحدهما من المشهد وقد كبر الناس في قلبه، ويخرج الآخر وقد ازداد بالله يقيناً؛ لا لأنه أنكر ما رأى، ولا لأنه غطّى الخوف بكلماتٍ لا يصدقها، بل لأن عينه لم تكن آخرَ أداةٍ للحكم.

هذه المسافة بين رؤية الشيء ومعرفة معناه هي أول ما يحتاجه من يريد أن يقرأ حركة الأيام بميزان القرآن. فليس كل ما تراه كاذباً، وليس المطلوب أن تشك في الأخبار والأرقام والوقائع؛ وإنما الخطر أن تتحول «اللقطة» إلى تفسيرٍ كامل، وأن يتحول السبب المشهود إلى حكمٍ على الحق، أو على رضا الله، أو على مستقبل لم يقع بعد.

الخبر في ذاته أمانة: لا يجوز أن نهرب من قسوته، ولا أن ننتقي منه ما يوافق ما نحب. فإذا كانت هزيمةً سميناها هزيمة، وإذا كان ضعفًا اعترفنا بالضعف، وإذا كانت قوةً قلنا إنها قوة. لكن الأمانة نفسها تقتضي ألا نضيف إلى الخبر ما ليس فيه. **الوصف شيء، والتفسير شيء، والحكم على المآل شيء ثالث.** وكثير من اضطراب القلب يبدأ حين تذوب هذه الطبقات في لحظة واحدة.

تقول الأرقام: هذا الطرف أكثر. فيصبح المعنى في القلب: إذن لا يُغلب. يقول الخبر: تأخر ما كنت تنتظره. فيصبح المعنى: إذن الوعد لم يصدق. يقول الواقع: اتسعت الدنيا لإنسان. فيصبح المعنى: إذن هو مكرم عند الله. لا شيء من النتائج الأخيرة موجودٌ في الرقم أو الخبر أو السعة نفسها؛ إنها قفزاتٌ يصنعها القلب ثم ينسى أنه هو الذي صنعها.

والنفس لا تحب الخبر المفتوح؛ تريد أن تعرف سريعًا: لماذا وقع؟ وإلى أين ينتهي؟ والاعتبار القرآني لا يقتل هذا السؤال، بل يهذبه: ابحث حتى آخر ما تقدر عليه، ثم لا تجعل حاجتك إلى الجواب أقوى من أمانتك مع الحقيقة. قوة النظر أن تتعلم، وتواضع المعرفة أن تقول عند حد العلم: لا أعلم.

والقرآن لا يترك هذا الفعل بلا اسم. إنه يدعو إلى الاعتبار، ويصف أهله بأنهم أولو الأبصار وأولو الألباب. وحين قصّ خروج بني النضير من حصونٍ ظنوا أنها مانعتهم قال في آخر المشهد: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: 2]. وحين ذكّر ببدر قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [آل عمران: 13]. وحين ختم قصة يوسف قال: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: 111].

فالعبرة ليست مجرد أن تعرف أن شيئًا وقع في الماضي. أنت قد تحفظ الواقعة، وتعرف أسماء أصحابها، وتستطيع أن تسرد تفاصيلها، ثم لا تعتبر بها. الاعتبار انتقالٌ من الخبر إلى ما يكشفه الوحي من دلالته؛ أن تمرّ بالواقعة فلا تبقى الواقعة هي نفسها في ميزان قلبك بعد أن يريك الله ما وراء ظاهرها من معنى مأذون لك أن تراه.

والنص هو الذي يحدد جهة العبور: من الحصون إلى بطلان توهم المنعة من الله، ومن قصة يوسف إلى العظة وصدق خبر الوحي، ومن مصارع المكذبين إلى ما كشفه الله من عاقبتهم. فالعبرة ليست ممرًا من الخبر إلى خيال القارئ، بل إلى الدلالة التي أذن الوحي أن تُرى.

العين قد ترى... والقلب لا يبصر

ولهذا جاء التعبير القرآني الحاسم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

ليس العمى هنا فقدَ الصورة. قد تكون الآثار أمام العين، ومصارع الأمم معروفة، والأخبار تتكرر، ومع ذلك يبقى القلب أعمى عن الدلالة التي كان ينبغي أن توصله إليها. وفسّر الطبري الآية بأنهم ينظرون إلى مصارع المكذبين، فلا يتفكرون ولا يعتبرون، ثم بيّن أن الأبصار قد ترى الأشخاص، بينما تعمى القلوب عن إبصار الحق ومعرفته.

وهنا ينكشف السؤال الذي سيصحبنا في حركة الأيام كلها: ما الحكم الذي تحاول هذه الواقعة أن تكتبه في قلبي؟ وما الذي أثبته الخبر حقًا، وما الذي أضفته أنا إليه؟

فالحدث لا يدخل النفس بلا ترجمة. نصرُ من نحب قد يغري القلب بأن يصحح له كل شيء، وخسارته قد تدفعه إلى إبطال كل شيء، وتقدم أمة في باب قد يجرّ العين إلى التسليم لها في أبواب لا يدل عليها تقدمها. هكذا تستولي اللقطة: لا بالكذب في أصل الخبر، بل بإعطائه سلطةً لم يمنحها الله له.

والاعتبار يعيد كل حقيقة إلى قدرها: قوة الخصم تُرى قوةً، وخطأ أهل الحق يُسمّى خطأً، والنعمة تُرى نعمةً؛ ثم يبقى الحكم على الحق والرضا والمآل للوحي لا للانبهار. هكذا لا تفقد العين صدقها، ولا يفقد القلب حريته.

وحين يستقر هذا الميزان، لا يعود الخبر محتاجًا أن يحمل أكثر مما فيه. العدد يفيد في الحساب، والمال باب نعمةٍ ومسؤولية، والضعف حالٌ تُعالج، والجرح ألمٌ يُصبر عليه؛ وكل حقيقة تعمل في بابها من غير أن تستولي على الأبواب كلها.

الاعتبار ليس إسقاطًا حرًّا

لكن باب الاعتبار يفسد إذا صار المشهد القرآني قالبًا جاهزًا للحاضر: صلحٌ يسمى حديبية، وقوةٌ تسمى استدراجًا، وهزيمةٌ تسمى تمحيصًا. العبرة أن نقف حيث كشف النص؛ فما كشفه الله نثبته، وما عرفناه بسببٍ بشري ننسبه إلى درجته.

أما تعيين الحكمة الإلهية الخاصة في واقعةٍ معاصرة فباب آخر لا يفتحه التشابه ولا الحدس. ويكفي أن نتعلم هنا الوقوف عند حد النص؛ أما تحرير ما نعرفه وما لا نعرفه عن حكمة الله في الوقائع فله موضعه في القسم الخامس.

من الخبر إلى العبودية

ولهذا لا ينتهي الاعتبار إلى فكرةٍ صحيحة فقط؛ ينتهي إلى قلبٍ أصح. أمام تضخم العدو يقول المؤمن: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وأمام اجتماع الأحزاب: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾، وعند الفتح يُرد إلى التسبيح والاستغفار، وعند الفوات إلى الصبر، وعند العطاء إلى الشكر. الوحي لا يصحح تفسير الحدث ثم يترك القلب كما كان.

والقلب المبصر لا يصير حجرًا أمام الخبر؛ يخاف ويتألم، ويفرح ويتمنى، ثم يرد حركاته إلى ربها: خوفه إلى التوكل، وما أُعطي إلى الشكر، وفواته إلى الصبر، وما خفي عليه إلى التسليم. ومن هنا يبدأ الطريق: يرى الحدث كما هو، ويقوم لله بما يطلبه الحال، ويترك للغيب حدَّه. وأول امتحان لهذا البصر ألا يجعل يومًا واحدًا القصة كلها.

القسم الأول: لا تحكم من اللقطة

للحدث سلطةٌ لا تأتي من حجمه وحده، بل من قربه. ما يقع الآن يملأ العين، وما يملأ العين يوشك أن يملأ القلب. ترى جولةً واحدة فتظنها المسار كله، وترى حصنًا فتراه أمانًا، وترى زينةً فتقرأها نجاحًا، وترى منعًا فتسميه هزيمةً نهائية. وكلما اشتدت حرارة اللحظة ضاق الأفق حتى تكاد اللقطة تقول: **أنا الحقيقة كلها.**

والقرآن لا يطلب منك أن تهرب من اللحظة، ولا أن تخفف ألمها بالوهم. لكنه يفتح حولها أفقًا أوسع. يعطي كل واقعة اسمها، ثم يمنعها أن تتجاوز قدرها. فمن هنا تبدأ إعادة بناء العين.

وقد تكون هذه اللقطة أقرب إلى حياتك من مشهد حربٍ أو حصار. قد تكون رسالةً انتظرتها طويلًا، أو نتيجة فحص، أو خسارةً لم يدرِ بها أحد، أو خبرًا عن شخصٍ بلغ ما كنت تتمناه لنفسك. في مثل هذه اللحظات لا تحتاج النفس إلى إنكار ما وقع؛ تحتاج إلى عينٍ لا تسمح لخبرٍ واحد أن يختصر معرفتها بالله، أو يحصر الحياة والمستقبل في معنى واحد.

ولكل إنسان أيامه قبل أن يفتح كتابًا في أخبار الأمم: سعة وضيق، قبول ورد، عافية ومرض، اجتماع وفقد. وقد يأتي الامتحان في خبر لا يراه أحد سواك؛ تغلق الهاتف، ويبقى قلبك وحده أمام ما بلغه. عندها يظهر أن الميزان الذي يصح أمام جيشٍ وحصن هو نفسه الذي تحتاجه في أخصّ شأنك.

وحين تكون الأيام أيام دعوتك

وليس كل قارئ يقف خارج الجماعة التي يقرأ خبرها. قد تكون أنت من ينتظر ثمرة مشروعٍ دعوي، أو يبني مؤسسة تعليم، أو يحمل خطابًا يرجو أن يصل، أو يرى في ضعف المسلمين وجعًا يمسه في عبادته وعمله كل يوم. عندئذ لا يكون «خبر الجماعة» خبرًا عامًا فحسب؛ يدخل البيت معك، ويصعد المنبر معك، ويجلس إلى مكتبك، ويؤثر في نومك ودعائك وخططك.

ولهذا يكون الخطر أشد: إذا نجح المشروع الذي تحبه أوشكت النفس أن توسع نجاحه حتى يصير تزكيةً لكل اختياراته؛ وإذا تعثر أوشكت أن توسع التعثر حتى يصير هزيمةً للفكرة التي يحملها أو للدين الذي يخدمه. وهنا يحتاج القارئ إلى عينين معًا: عينٍ تحب الخير وتبذل له، وعينٍ لا تسمح لحبها أن تستولي على الحكم. ما كان لله يبقى لله، وما كان اجتهادًا بشريًا يبقى قابلًا للتصحيح، وما وقع اليوم يبقى يومًا لا كل الطريق.

أُحد والأحزاب: المشهد نفسه لا يحكم وحده

أصاب المؤمنين في أُحد ما أصابهم. قُتل منهم من قُتل، وجُرح من جُرح، وتبدلت صورة اليوم بعد بدر. ولو تُركت العين وحدها لتقول الكلمة الأخيرة، لكان الجرح قادرًا على أن يفسر الطريق كله.

لكن أول ما يفعله القرآن بعد القرح أن يمنع القلب من تحويل الجرح إلى وهن: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139]. العلو هنا لا يمحو ما وقع في الميدان، والآية لا تقول إنهم لم يُصبهم القرح؛ بل تأتي بعدها مباشرة: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140].

الجرح حقيقة، وعلو الإيمان حقيقة أخرى لا يبتلعها الجرح. أصابهم ما أصابهم، وبقي معنى ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فوق تغير الجولة: الإيمان لم يسقط، ووعد الله لم يبطل، وغلبة يوم لم تتحول إلى منزلةٍ عند الله.

ولا يجعل قوله تعالى ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ المؤمن فوق المحاسبة؛ فسياق أُحد نفسه سيكشف أخطاءً حقيقية. علو الإيمان لا يصحح كل قرار، ولا يضمن كل جولة، لكنه يمنع الخطأ والهزيمة من أن يصبحا حكمًا على أصل الحق. كرامةٌ بلا غرور، ومحاسبةٌ بلا انهيار.

حدث واحد... وقراءتان متقابلتان

ويأتي الخندق فيكشف القضية بصورةٍ أشد وضوحًا. فالمدينة محاصرة، والأحزاب مجتمعون، والخوف بلغ موضعًا وصفه القرآن بقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: 10]. لم يكن المشهد هيّنًا، ولم تكن لغة القرآن باردةً في وصف شدته.

ثم ينقل القرآن لنا تفسيرين للحدث نفسه. فريقٌ يقول: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12]. وفريقٌ يرى الأحزاب أنفسهم فيقول: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

انتبه: لم تتغير الأحزاب بين الآيتين. العدد هو العدد، والحصار هو الحصار، والخطر هو الخطر. الذي تغيّر هو **القلب الذي يقرأ**. جعلت القلوب المريضة ظهور الشدة تكذيبًا للوعد، بينما قرأ المؤمنون الشدة نفسها داخل ما أخبر الله به من الابتلاء، فصار تحقق الشدة عندهم زيادةً في التصديق لا مادةً لنقضه.

فالخبر لا يدخل قلبًا فارغًا؛ يجد فيه معرفةً سابقة بالله، أو شكًّا، أو خوفًا، أو رجاءً. المنافق رأى الأحزاب بعين شكه، فوجد في الشدة ما يغذي شكه؛ والمؤمن رآها داخل خبر الله عن الابتلاء، فازداد تصديقًا. الحدث واحد، لكن القلب لا يترجمه إلا بما استقر فيه من ميزان.

ولهذا كان الخوف نفسه اختبارًا للميزان، لا دليلًا على غيابه. الآيات وصفت زوغان الأبصار وبلوغ القلوب الحناجر؛ فالمؤمن قد يخاف، لكن الخوف لا يُعطى حق الحكم على الله. بين ارتجاف القلب وبين سوء الظن مسافةٌ تحفظها العبودية.

ولهذا يقول القرآن في مشهد آخر بعد أُحد، حين قيل للمؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، إن هذا الخبر ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]. لم يقل لهم أحد إن الناس لم يجمعوا. إنما وقع التصحيح في موضع آخر: لماذا يجب أن يصبح خبر الجمع سلطانًا على قلبك؟

والآية ترتب الخوف في القلب: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]. الخطر يُعرف ويُستعد له، لكن خوف المخلوق يبقى تحت خوف الخالق، فلا يغير الحق في العين ولا يعطل العبد عن واجبه.

فالعبودية هنا ليست غياب الإحساس، بل بقاء القلب لله وهو يشعر: يرى الجمع ولا يعبده، ويعرف الخطر ولا يمنحه علم الغيب، ويتألم ولا يجعل الألم قاضيًا على الوعد. وإذا قال ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ لم يغادر الواقع؛ بل عاد إليه وقلبه في موضعه الصحيح.

ولهذا كان ﴿إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ في الخندق مع حفرٍ وحراسةٍ وصبرٍ على الجوع والخوف. التسليم لله لم يكن خروجًا من ساحة التكليف، بل هو الذي منع الساحة من أن تبدو في قلوبهم كأنها خارجة عن ملك الله وتدبيره.

البحر أمـامهم وفرعون وراءهم - حين قـالـت العين انتهى الطريق -

وفي قصة موسى عليه السلام تأتي لقطةٌ لا تحتاج إلى أن نستعجل تفسيرها. خرج بنو إسرائيل، ثم أدركهم فرعون وجنوده عند الشروق. صار البحر أمامهم، والجيش وراءهم، والمسافة تضيق حتى رأى كل فريقٍ الآخر.

يقول الله: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61]. لم يكن قولهم اختراعًا للخطر، لقد رأوا ما يُرى: عدوًّا مدججًا يقترب، وطريقًا ينتهي عند الماء. وفي تلك اللحظة خرج الحكم طبيعيًا من ضغط الصورة: ﴿الٓمٓ﴾.

ثم جاءت كلمة موسى عليه السلام قصيرةً بقدر ما كان المشهد مزدحمًا: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62].

دع هذه الجملة تستقر قليلًا. لم يكن موسى يملك في يده خريطةً يراها قومه، ولم يكن البحر قد انشق بعد. الذي كان حاضرًا في كلمته قبل أن يتغير شيء في الخارج هو معرفة الرب: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾. ومن هذه المعرفة جاء رفض الحكم الذي فرضته اللقطة: ﴿كَلَّا﴾.

ثم جاء الأمر: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وأزلف الله الآخرين، ثم قال: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الشعراء: 63-66]. الذي بدا قبل لحظات نهاية الطريق صار هو الطريق نفسه.

لا يعطينا هذا المشهد وعدًا بأن كل بحرٍ سينشق لنا بالطريقة نفسها، لكنه يثبت في القلب ما هو أرسخ من تخيل صورة النجاة: ما تراه العين لا يحد قدرة الله، وما يبدو آخر الطريق قد يكون موضعًا لفتحٍ لم يخطر لك. وفي أشد مواضع الحساب ضيقًا يبقى للمؤمن علمٌ برب يهدي ويقدر، وإن جهل الطريق الذي ستأتي منه الهداية.

ومن هذا المشهد القريب من حافة النهاية، ينقلنا القرآن إلى أخبار أممٍ ودولٍ بدت فيها موازين القوة محسومةً على مدى أوسع.

الروم والفيل- حين يبدو ميزان القوة محسومًا-

قد تكون اللقطة أوسع من معركة يعيشها المؤمن بنفسه. أحيانًا تكون حدثًا في العالم، تتحرك فيه أمم بعيدة، وتبدو نتائج القوة أمام الناس كأنها صفحةٌ طُويت.

افتتحت سورة الروم بخبرٍ بالغ الاختصار والقوة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: 2]، ثم حدّد القرآن موضع الغلبة: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: 3]، ولم يترك الهزيمة تأخذ هيئة الحكم النهائي: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: 3-4].

ما كان في أيدي الناس خبرُ هزيمةٍ وقعت، أما خبرُ المآل فلم يكن في أيديهم حتى كشفه الوحي. ومن هنا يبدأ الفرق بين أن تصف اللحظة، وأن تجعلها مالكةً للمستقبل.

كان الناس أمام خبرٍ ماضٍ: غُلِبت الروم. والقرآن يفتح المستقبل على نتيجةٍ لم تكن العين تملكها: سيغلبون. وبين الماضي والمستقبل تأتي الجملة التي تعيد كل حركة القوة إلى موضعها: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ [الروم: 4].

فالحاضر يؤثر في الغد ولا يملكه. قوة اليوم سبب، وضعف اليوم حال، والزمن ميدان تتغير فيه الأسباب والقرارات والناس، وفوق ذلك كله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾.

القوة حقيقية، وهي من الأسباب التي تقع بها الغلبة، ومع ذلك تبقى داخلةً في قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ [الروم: 4]. يزن المؤمن القوة بقدرها، ثم يرد الأمر كله إلى مالكه.

ثم يربط الوحي حركة العالم بقلب المؤمن: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: 4-5]. في قلب الأحداث الكبرى، لا يصبح المؤمن عابدًا للأرقام ولا متفرجًا عديم الصلة بربه؛ يرى وراء الحركة مشيئة العزيز، ويعرف أن تقلب القوة لا يخرج لحظةً عن ملكه.

ثم يضع السياق المعرفة الدنيوية في حدها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.[الروم: 7] لم يذم القرآن معرفة المعاش وتدبير الدنيا، وإنما ذم أن تقف المعرفة عند ظاهرها وتغفل عن الآخرة التي أخبر الله بها.

ولهذا لا تجعل الخبرة المادية علمًا بالمآل. قد تحسن قياس الاحتمالات، وتبني قرارًا راشدًا عليها، ثم تبقى النهاية غيبًا. المؤمن يتعلم الحساب ولا يعبده؛ يستعمل المؤشر فيما يدل عليه، ولا يطلب منه ما لا يملك.

﴿الٓمٓ﴾... بعين القلب

وتأتي سورة الفيل من زاوية أخرى. ليست فيها موازنة طويلة بين قوتين، ولا يذكر القرآن فعلًا عسكريًا لأهل مكة يدفعون به أصحاب الفيل. يبدأ المشهد بسؤال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: 1]. وقال الطبري في تفسيرها نصًّا: «ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فترى بها». فالرؤية هنا علمٌ واعتبار بخبر الوحي؛ لم يشهد النبي ﷺ الواقعة بعينه، لكن الوحي يضعها أمام القلب ليرى فعل الرب فيها.

ثم لا يتجه النظر إلى حجم الجيش بقدر ما يتجه إلى فعل الرب: ﴿الٓمٓ﴾، ثم يذكر ما أرسله عليهم حتى انتهى المشهد: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: 2-5].

وظيفة سورة الفيل هنا أن تضع فعل الرب أمام القلب في واقعة مخصوصة: كيدٌ اكتملت أدواته، ثم جعله الله في تضليل. فتستقر المعرفة بأن اكتمال الكيد لا يخرجه عن أمر الله، مع بقاء العبد مأمورًا بما يستطيع من إعداد وعمل.

ومن هذه المعرفة يولد يقين هادئ: الله قادر، والكيد تحت أمره، وأنا عبد مأمور بما أستطيع. صورة الفرج ووقته إلى الله، والعمل الذي في يدي إليّ.

ويختلف هذا عن مشهد الروم: هناك تتبدل الغلبة داخل مجرى التاريخ، وهنا يُبطل كيدٌ مخصوص بفعلٍ خارق. لا نصهر الصورتين في قانون واحد؛ الذي يجمعهما أن القوة ليست مالكةً للنهاية، وأن أمر الله لا يتبع حسابنا.

وسورة الفيل تقول: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، وسورة الروم تقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾. الفرق بين هذا الميزان وبين مجرد القول إن «التاريخ متغير» هو الربوبية: قد تجهل ما سيقع، لكنك لا تجهل لمن الأمر.

ومن يعرف أن الأمر لله يستطيع أن يعمل بالأسباب من غير أن يسجد لها. أما من عبد اللقطة فمصيره بين غرورٍ بأسبابه وانهيارٍ أمام أسباب غيره. القوة تُحسب، لكنها لا تُعبد.

الحديبية - حين يسمي الوحي ما لم تره العين فتحًا-

هناك لحظات لا تكون المشكلة فيها أن العدو قوي فقط، بل أن ما وقع يبدو مخالفًا تمامًا لما خرجتَ تطلبه.

خرج النبي ﷺ وأصحابه يريدون البيت، ثم صُدّوا عنه، وانتهى الأمر إلى صلحٍ ثقلت بعض شروطه على نفوس من شهدوه. ويكشف حديث الحديبية مقدار الضغط حين سأل عمر رضي الله عنه النبي ﷺ: «ألست نبي الله حقًا؟» فأجابه: «بلى». ثم عاد عمر إلى ما رآه من الدنية في ظاهر الشروط، فقال له النبي ﷺ: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري». ثم بيّن له أن وعد دخول البيت لم يتضمن أن يكون ذلك في العام نفسه. وبعد ذلك أجاب أبو بكر رضي الله عنه عمر بمعنى قريب، مؤكدًا أن النبي ﷺ لا يعصي ربه وأن الله ناصره؛ فالتشابه بين العبارتين ثابت، والمتكلم في الجملة الأولى هنا هو النبي ﷺ (صحيح البخاري، 2731–2732).

ثم جاء أبو جندل رضي الله عنه يرسف في قيوده، وقد أسلم وخرج يطلب النجاة بدينه، فاقتضى الشرط أن يُرد. هنا لم يعد الصلح فكرةً على الورق؛ صار أمام العيون رجلًا معذبًا يُعاد إلى من عذبه. صدق الألم في هذا المشهد هو الذي يجعل الحديبية مدرسةً حقيقية: قد يكون ما تراه موجعًا حقًا، ومع ذلك لا تكون قد رأيت القصة كلها.

لهذا كان الامتحان في الحديبية أعمق من سؤالٍ عسكري: هل يظل القلب عبدًا حين تكون الطاعة أثقل من الصورة التي كان ينتظرها؟ وهل يستطيع أن يصدق الوعد من غير أن يشترط على الله الطريق الذي يحققه به؟

لم يكن المطلوب من الصحابة أن يسمّوا الألم راحة، ولا أن يروا ما لم يروا. المطلوب أن يطيعوا الله ورسوله حين كانت الثمرة الكاملة وراء الأفق. لو كان التسليم لا يبدأ إلا بعد انكشاف كل حكمة، لما كان تسليمًا.

وفي الطريق، لما بركت القصواء وظن بعض الصحابة أنها خلأت، قال ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» (صحيح البخاري، 2731-2732). ثم مضى في التفاوض والأخذ بالأسباب. معرفة أن التدبير لله لم توقف العمل؛ وضعت العمل في موضعه.

في الحديبية تعلّم القلب أن الوعد أوسع من السيناريو الذي يرسمه. ظل وعد الله حقًا، بينما سقط الطريق الذي تخيله بعض الصحابة لتحقيقه. وهنا يتحرر الرجاء من أن يشترط على الله صورة الطريق.

ثم تنزل سورة اسمها «الفتح»، وتفتتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1]. هنا لا يعاد تجميل الماضي بعد ظهور النتائج؛ الوحي نفسه يسمّي الحدث وهو قريب العهد بألمه، فتضعف سلطة الاسم الذي منحه له شعور اللحظة.

ولا يملك البشر هذا الحق في التسمية الغيبية لأنفسهم. هذا الصلح سمّاه الله فتحًا، فنلقاه بهذا الاسم؛ أما قراراتنا المعاصرة فلا نوزع عليها أسماء الوحي بحسب الميل. الذي يبقى لنا من المشهد أعمق من الاسم: قد تكون قيمة الواقعة عند الله أوسع من الصورة التي أدركتها العين في ساعتها.

ثم يأتي قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾[الفتح: 27]. كشف الوحي بعض ما خفي، وأبقى ما لم يكشفه خارج دعوى الإنسان. لا يحتاج القلب هنا إلى اختراع حكمة لكل تفصيل؛ يكفيه أن يعلم أن علمه ليس هو حدَّ علم الله.

ولهذا جاءت السكينة في السورة نفسها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: 4]. السكينة ليست اكتمال الخريطة، بل ثبات القلب حين لا تكون الخريطة كلها في يده.

ولهذا كان البراء رضي الله عنه يقول إنهم كانوا يعدّون بيعة الرضوان يوم الحديبية فتحًا (صحيح البخاري، 4150). لم تتغير الواقعة بإعادة تزيين الذاكرة؛ الذي تغير هو الاسم حين تلقاه المؤمنون من الوحي، ثم كشفت الأيام بعض ما كان الاسم يحمله.

قارون - حين تمنح الزينة صاحبها سلطةً على ميزانك -

قد لا تكون القوة جيشًا. وقد لا تصل إليك في هيئة تهديد، بل في هيئة إغراء.

وكان القرآن قد كشف قبل خروج قارون في زينته أنه ﴿بَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وأن الموعظة الموجهة إليه جمعت بين طلب الآخرة، وعدم نسيان النصيب من الدنيا، والإحسان، وترك الفساد. فالمال ليس المتهم؛ المتهم هو البغي وفساد تفسير النعمة.

ولهذا كان قوله ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ في هذا السياق ذمًا لفرح البطر والأشر، لا لكل سرور بنعمة. القلب المطلوب ليس باردًا أمام العطاء، بل شاكرًا لا متعاليًا.

لكن الفتنة لم تقع في قارون وحده. الجمهور انتقل في جملة واحدة مِمّا عنده إلى ما هو عليه: مالٌ وزينة، إذن ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. وهنا تتحول النعمة المرئية إلى سلطةٍ على ميزان المتفرج.

والقرآن يرد المال إلى موضعه الصحيح: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾. النعمة تُشكر وتُستعمل في الخير، والفساد يبدأ حين تُقطع عن واهبها أو تتحول إلى بغي أو شهادةٍ موهومة على الرضا.

ثم يقدم قارون تفسيره الخاص للنجاح: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾. هنا لا يعود السبب سببًا فحسب؛ يصير قصةً عن الاستحقاق والاستقلال. ويقابل أهل العلم هذه القصة بميزان آخر: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾. لم ينكروا المال؛ رفضوا أن يكون المال تعريفًا للخير.

ثم تأتي الضربة التي تسقط سلطة الزينة دفعةً واحدة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: 81]. المال الذي ملأ العين لم يستطع أن يصنع له فئةً تنصره، والدار التي كانت جزءًا من المشهد صارت معه في الخسف.

ثم يسقط المشهد الذي أسر العين، ويتكلم المتمنون من جديد. ما كان بالأمس «حظًا عظيمًا» صار بعد الخسف موضع خوف: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾. لم تتغير أرصدتهم؛ تغير معنى الحرمان والنعمة في قلوبهم.

وهذا هو موضع قارون هنا: ليس درسًا في أن الفقر خيرٌ من الغنى، بل في أن الغنى لا يملك أن يشهد لصاحبه بالرضا. أهل العلم امتلكوا الميزان قبل سقوط الزينة؛ والآخرون لم يستردوه إلا بعد أن سقطت.

صاحب الجنتين - حين تتحول النعمة إلى وعدٍ بالبقاء -

وفي سورة الكهف تصبح الفتنة أقرب إلى حديث النفس. يقول صاحب الجنتين: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾. المال هنا ليس ملكًا فقط، صار مادةً للمفاضلة، والنفر صار امتدادًا للشعور بالمنعة.

ثم يدخل جنته وهو ظالم لنفسه، فيحوّل الحاضر إلى حكمٍ على المستقبل: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، ثم يمد هذا القياس إلى ما وراء الدنيا: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: 35-36]. لأن النعمة قائمة الآن، صار بقاؤها في نفسه أقرب إلى اليقين؛ ولأن الدنيا وسعت له، تخيل أن هذا الاتساع شهادةٌ تمتد حتى إلى الآخرة.

ثم يتجاوز الاغترار الحاضرَ إلى المآل: نجاحه الدنيوي يصبح عنده قرينةً على دوام النعمة وعلى حسن المنزلة إن كانت هناك آخرة. لذلك يرده صاحبه أولًا إلى أصل العبودية: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

ثم يعيد القوة إلى مصدرها: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. ليست الكلمة تعويذةً لحفظ الجنة فحسب ، بل تصحيحٌ لموضع السبب: القوة التي تراها حقيقية، لكنها ليست قائمةً بنفسها ولا مالكةً لغدها.

ثم يقع ما استبعده: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، ويتبعها الحكم الذي يعري النفر والمنعة: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: 42-43]. لم يكن الخطأ أن الجنة قوية، كان الخطأ أن القوة تحولت في القلب إلى ضمان.

والعبارة الكاشفة أن القرآن وصفه وهو في أوج النعمة بأنه ﴿الٓمٓ﴾. لم يبدأ الانهيار يوم سقط الثمر، بدأ يوم فسد تفسير الثمر في القلب. قد تكون الصورة في الخارج مزدهرة، والميزان في الداخل قد بدأ ينهار.

ويختم المشهد بإعادة القوة إلى ربها: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. النعمة تبقى نعمة، والقوة تبقى سببًا، والقلب يبقى متعلقًا بمن منحها أثرها ويمتلك غدها.

هنا يبلغ صاحب الجنتين نهايةَ وهمه: لم تكن المشكلة في امتلاك جنةٍ قوية، بل في أن النعمة التي بين يديه تحولت إلى وعدٍ بالبقاء كتبه هو لنفسه. ومن هذه الصورة الفردية ينتقل القرآن إلى صورة أخرى للمنعة: لا مالٌ يزهو به صاحبه، بل حصنٌ يطمئن إليه.

الحشر- حين يتحول الحصن إلى ضمان -

وفي الحشر تأتي المنعة في صورةٍ لا تُغري كزينة قارون، بل تطمئن كالحصن. يقول الله عن بني النضير: ﴿ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ [الحشر: 2]. الحصن هنا لم يعد مجرد جدارٍ قوي؛ صار في الظن مانعًا من الله.

واللافت أن الظن بالمنعة لم يكن عند أصحاب الحصون وحدهم؛ حتى المؤمنون لم يظنوا أن يخرجوا.

كان ظاهر التحصين قويًا من الجهتين، ثم وقع ما لم يدخل في التقدير: ﴿أَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾، وخُتم المشهد: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

الحصن سبب من أسباب المنعة، وقد يؤخذ به ويُحسن بناؤه؛ لكن الآية تكشف الحد الذي لا يتجاوزه: لا جدار يمنع من الله. حين يبقى هذا الحد حاضرًا يستعمل القلب السبب من غير أن يحوله إلى وعدٍ بالمصير.

ويحفظ السياق خصوصية الواقعة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الحشر: 4]. هذا سبب كشفه الوحي في بني النضير؛ نتعلم منه حيث دل النص، ولا نحول سقوط حصونهم إلى اسم جاهز لكل حصار أو إلى دعوة لاحتقار التحصين.

ما الذي تغيّر في العين؟

مرّ بنا جرحٌ وحصار، وبحرٌ يبدو آخر الطريق، وخبر هزيمةٍ في العالم، ومنعٌ في الحديبية، وزينةٌ تملأ الأبصار، وجنةٌ يظن صاحبها أنها باقية، وحصنٌ يبدو مانعًا. لم يطلب القرآن أن نكذّب شيئًا من هذه الصور. علّمنا شيئًا أهدأ: أن نسمّيها بأسمائها، ثم نترك للحق والرضا والمآل أبوابها التي لا تملكها الصورة وحدها.

العين المبصرة ترى المال فتقول: مال. وترى الحصن فتقول: منعة. وترى الهزيمة فتقول: جولة مؤلمة. وترى النجاح فتفرح به بقدره. ثم يبقى القلب حرًّا من أن يكتب تحت كل صورة حكمًا أكبر منها. بهذا لا يصبح الواقع أقل حضورًا؛ يصبح أوضح.

وحين يأتيك خبر بعد اليوم، امنحه لحظةً يكون فيها هو نفسه قبل أن يصبح معنى العمر كله. دعه يستقر بقدره، ثم اسأل: ما الذي أثبته حقًا؟ وما الذي أضافه خوفي أو إعجابي أو استعجالي؟ في هذه المسافة الصغيرة بين رؤية الشيء والحكم به يستعيد القلب شيئًا من حريته.

ومن هنا ينتقل السؤال طبيعياً من العين إلى اليد: إذا كانت القوة لا تضمن، فهل يُترك السبب؟ أم أن العبودية نفسها تأمر بإعداده، ثم تحفظ القلب من الركون إليه؟

القسم الثاني: خذ بالأسباب ولا تعبدها

إذا كانت القوة لا تضمن، فهل يكون إضعاف الأسباب أقرب إلى التوكل؟ القرآن يقطع هذا الطريق من أصله. الذي نزَع عن السبب سلطانَ النتيجة هو نفسه الذي أمر بالثبات والطاعة والصبر والمشاورة وإعداد القوة. فلا يربي المؤمن على يدٍ فارغة باسم التوكل، ولا على قلبٍ ممتلئ بالأداة باسم الواقعية.

وللأسباب فتنتان متقابلتان. قد يتركها الإنسان ثم يكسو عجزه اسم التوكل، وقد يحسنها حتى إذا اكتملت سكن إليها كأنها وعد نافذ. وربما كان امتحان القلب أدق حين تقوى الأدوات: هل يزداد شكره وافتقاره، أم يشعر في سرّه أنه لم يعد محتاجًا إلى الباب الذي كان يطرقه بالدعاء؟

هذا القسم لا يسأل: هل نأخذ بالأسباب؟ فقد حسم القرآن ذلك . سؤاله : ما الذي يفعله السبب حقًا، وأين ينتهي أثره، وكيف يبقى القلب عبدًا لله وهو يعمل بأقصى ما يستطيع؟

1-2 — من أين يأتي النصر؟

بدر من أوضح المشاهد التي يجتمع فيها العمل والافتقار من غير أن يذيب أحدهما الآخر. قاتل المؤمنون، وثبتوا، ورموا، وأسروا؛ وسبق ذلك استغاثة بربهم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9].

ثم جاءت الآية التي تحرس حتى المدد الملائكي من أن يتحول في القلب إلى مصدر مستقل: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 10].

موضع الجملة هو الدرس: البشرى حقيقية، والطمأنينة مقصودة، والمدد مذكور، ثم يبقى الحكم فوق ذلك كله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾. وبيّن الطبري أن النصر لم يكن لشدة بأس المؤمنين وقوتهم، بل بنصر الله لهم؛ فهو العزيز الذي لا يُقهر، الحكيم في تدبيره ونصره و خذلانه. فالآية لا تمحو القوة، وإنما تمنعها أن تستقل بما ليس لها.

ومن هنا لا يكون التوكل وعدًا نفسيًا بأن تسير التفاصيل كما نريد. القلب يتعلق بالعزيز الحكيم : يعمل لأن الله أمر، ويرجو لأن النصر بيده، ويسلّم لأن الحكمة لا تتوقف على أن تتكشف له كل تفاصيلها.

وتجسد السنة هذا الافتقار في قلب بدر نفسه. روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل القبلة ومد يديه وجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني»، وما زال يناشد ربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأعاده أبو بكر رضي الله عنه وقال له إن الله سينجز له ما وعده، فنزل قوله تعالى في الاستغاثة والإمداد. (صحيح مسلم: 1763).

هذه صورة الافتقار في لحظة الحسم: وعدٌ معلوم، وأسبابٌ مبذولة، ونبيٌّ ﷺ يرفع يديه حتى يسقط رداؤه. لم تكن حاجته إلى الدعاء بديلًا عن العمل؛ كانت حقيقة العبودية وهي في قلب العمل نفسه.

في بدر لم يكن الدعاء استراحةً من العمل، ولا كان العمل حجابًا عن الدعاء. اجتمعت اليد في الميدان والقلب على باب الله. وكلما اقتربت لحظة الحسم ازداد وضوح الحقيقة: تستطيع أن تبلغ في السبب غايته، ثم تبقى النتيجة كلها في ملك الله.

الافتقار في عمل الدعوة

ويمتد هذا المشهد خارج ميدان القتال إلى كل عملٍ يراد به نفع الدين والناس. قد تجمع العلم، وتُحسن اختيار المعلمين، وتبني مؤسسة، وتدرب فريقًا، وتختار خطابًا أصدق وأحكم، وتستنفد ما تعرفه من أسباب الوصول؛ وكل ذلك من الأمانة. لكن القلوب ليست في يدك، والقبول ليس ملكك، وبقاء المشروع بعدك ليس وثيقةً توقعها لنفسك. تمام الجهد أن لا يتحول إحكامه إلى شعور خفي بأن النتيجة صارت لك.

والداعية الذي يفتقر إلى الله بعد أن أحسن عمله أصدق عبوديةً من داعية لا يعرف الافتقار إلا عند انهيار أدواته. فإذا اتسعت له المنابر، وكثر المتابعون، واستقرت المؤسسة، بقيت في قلبه حقيقة بدر: الوعد لله، والهداية بيده، والفتح فضله، وما في يد العبد أمانةٌ يبذلها ثم يقف بها على الباب. هذه ليست دعوةً إلى ضعف التخطيط؛ إنها تحرير للتخطيط من أن يصير ربًّا صغيرًا في القلب.

فعلٌ منك... وأثرٌ لا تملكه

ثم تأتي آية أشد إحكامًا: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَ﴾ [الأنفال: 17].

حرّر الطبري هذا الموضع بدقة: أضاف الرمي إلى النبي ﷺ من جهة الحذف والإرسال، ونسب إلى الله تسبيب الرمية وتسديدها وإيصال أثرها. فالآية تثبت فعل العبد حقيقةً، من غير أن يخرج فعله ولا أثره

عن خلق الله وقدره، ولا تجعل تمام النتيجة ملكًا له. وهذا أدق من أن نقول: افعل أولًا ثم تذكّر التوكل بعد الفراغ؛ بل يكون الافتقار حاضرًا في قلب الفعل نفسه.

أنت تتعلم، وتخطط، وتبذل، وتستخدم ما أتاحه الله لك؛ لكنك لا تتعامل مع ما فعلت كأنه كتب المستقبل. وقد يكون بقاء هذا الافتقار مع اكتمال الأدوات أصعب من الافتقار عند فقدها : أن تكون قويًا في يدك، فقيرًا في قلبك.

2-2 — الأسباب التي يأمر بها القرآن

وليس هذا الجمع طارئًا في السورة؛ فمن أوائل وصف المؤمنين فيها: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]. ثم تمضي السورة نفسها إلى الثبات والطاعة والصبر وإعداد القوة. التوكل هنا ليس هامشًا روحيًا حول الأسباب؛ إنه القلب الذي يستعملها من غير أن يسلم لها نفسه.

لو اقتطعنا ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ من سورة الأنفال وتركنا بقية السورة، لأمكن للنفس الكسولة أن تستعملها عذرًا. لكن السورة نفسها التي ردت النصر إلى الله تقول عند اللقاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]، ثم: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 46]، ثم تأمر: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60].

هذه الآيات لا تعطينا سببًا واحدًا، بل بناءً كاملًا للعمل: إعداد في الخارج، وثبات عند اللقاء، وطاعة تمنع الجهد من التبدد، وترك للتنازع حتى لا تذهب القوة، وصبر يطيل النفس، وذكر يحفظ القلب في أشد لحظات الانشغال.

ولذلك لا يكون الذكر زينةً روحية حول حدث عملي. نقل الطبري عن قتادة في قوله ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾: «افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضراب بالسيوف». القلب لا ينسحب من الميدان حتى يكون مع الله؛ بل يكون مع الله وهو في ذروة العمل.

وكذلك التنازع ليس عيبًا أدبيًا فحسب؛ فالآية تربطه بالفشل وذهاب الريح، وفسر الطبري ذهاب الريح بذهاب القوة والبأس. قد تملك الجماعة أدوات كثيرة ثم تهدمها من داخلها، فلا يكون إصلاح الصف أمرًا زائدًا على الواقعية، بل جزءًا من سبب القوة نفسه.

وهذا من أكثر المواضع اتصالًا بالعمل الجماعي للدعوة. قد تكون الفكرة صالحة، والطاقات كثيرة، والنيات في أصلها تريد الخير، ثم يأكل التنازع من القوة ما لا يأكله الخصم. وحين يقع ذلك لا يكفي أن تتعلق الجماعة بشرف مقصدها، عليها أن تعود إلى سببٍ سماه القرآن: طاعةً، واجتماعًا على الحق، وصبرٍ يمنع اختلاف الاجتهاد من أن يتحول إلى فشلٍ وذهاب ريح. إصلاح الصف في هذه الحال ليس شأنًا إداريًا منخفض الرتبة عن «قضايا الأمة»؛ هو من العبادة التي يحفظ بها الله أثر العمل.

الإعداد لا يبدأ عند لحظة الحاجة

ثم يقول الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾. و «ما استطعتم» لا توحي بحد أدنى شكلي، بل تستنفر الطاقة الممكنة في بابها. وفسر النبي ﷺ جانبًا من القوة فقال على المنبر: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ» (صحيح مسلم: 1917).

الرمي مهارة تُتعلَّم قبل أن يُحتاج إليها. وهنا يخرج السبب من كونه رد فعل متأخرًا إلى استعداد سابق. من التواكل أن تترك زمن السعة يمر ثم تطلب من لحظة الخطر أن تعوض ما لم تبنه.

ولا يحصر القرآن السبب في السلاح والآلة. الثبات سبب، والطاعة سبب، والصبر سبب، والمشاورة سبب في بابها، والإعداد المادي سبب. الإنسان كله يدخل المعركة أو المشروع أو القرار؛ ولذلك يبني الوحي يده وقلبه وصفه معًا.

وتجسد السيرة هذا المعنى في طريقة النبي ﷺ في الإعداد. قال كعب بن مالك رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ كان قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تبوك؛ فلشدة الحر، وبُعد السفر، وكثرة العدو، كشف للمسلمين وجهه الذي يريد «ليتأهبوا أهبة عدوهم». (صحيح البخاري: 2948).

فالاستعداد النبوي ليس حركةً واحدة محفوظة تؤدى في كل ظرف. الكتمان نفسه سبب في موضع، ووضوح المقصد للجيش سبب في موضع آخر؛ والواقع هو الذي يحدد ما يحتاجه السبب المشروع. هذه سنة عملية في التعامل مع الأيام: لا يكفي أن تقول إنك أخذت بسببٍ ما، بل تنظر هل هو السبب الملائم لهذه الحال، وهل بُذل في وقته وبقدره.

المشاورة والعزم والتوكل

ومن أصرح المواضع في جمع التدبير والتوكل قول الله لنبيه ﷺ بعد أُحد: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

المشاورة توسع ما بين يديك من علم، والعزم يحمّلك مسؤولية القرار، ثم يأتي التوكل ليحفظ القلب من أن يجعل رأيه أو رأي الناس سندًا مستقلًا. تمضي بما ظهر لك، وقلبك معلق بربك فيما تأتي وتدع، راضيًا بقضائه إذا جرى الأمر على غير ما أردت.

هكذا لا يعيش المؤمن معلّقًا حتى يملك يقينًا بشريًا كاملًا لا يأتي، ولا مندفعًا كأن رأيه معصوم. يستشير، ثم يعزم، ثم يمضي. وحين تتحرك القدم يبقى القلب في مقامه: متوكّلًا على الله.

طالوت - لا القلة تنصر بذاتها ولا الكثرة تمنع بذاتها -

ويأتي مشهد طالوت فيكسر عبادة الرقم من الجهتين. بعد ابتلاء النهر، قال قوم عند رؤية جالوت وجنوده: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، وقال الذين استيقنوا لقاء الله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 249].

القرآن لا يقول إن القلة سر النصر؛ العبارة الحاكمة هي ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ثم ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. فالعدد يصف جانبًا من ميزان القوة، لكنه لا يملك وحده الحكم على النهاية.

ولما برزوا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 250]. طلبوا صبرًا في القلب، وثباتًا في القدم، ونصرًا من الله؛ ثم جاءت النتيجة: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 251]. نُسب الفعل إليهم، وحُفظ فوقه إذن الله. هذه هي صورة القسم كله في كلمات قليلة.

حنين - حين تصبح الكثرة فتنة -

بعد أن يأمرك القرآن أن تُعِد ما استطعت من قوة، يوقفك أمام حنين حتى لا تنقلب الطاعة إلى فتنة.

لم تكن المشكلة أن المسلمين كثروا، بل أن الكثرة دخلت القلب على صورةٍ أخرى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: 25].

سمّى القرآن موضع الفتنة بدقة: ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾. الكثرة نعمة وسبب، لكن الإعجاب نقلها من شيء يُشكر ويُستعمل إلى شيء يُركن إليه، فجاءت ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَ﴾ لتعيدها إلى حجمها: لها أثرها، وليس لها ضمان النتيجة.

حين يتغير مكان السبب في القلب

قد لا يترك الإنسان التوكل بلسانه، يبقى يدعو ويذكر الله، لكن موضع الاعتماد يتحول بهدوء. قبل أن تكتمل الأدوات كان قلبه على الباب، فإذا اكتملت قال في داخله: الآن أمنت. وهنا يبدأ التعلّق الذي يحذّر منه عنوان هذا القسم حين يقول: «ولا تعبدها»: لا لأنه استخدم السبب أو توقّع أثره، بل لأنه منحه في قلبه سلطانَ الضمان والاستقلال الذي لا يملكه في الواقع.

والعلاج القرآني ليس أن تُسلب القوة حتى تظل متواضعًا. بعد الانكشاف يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: 26]. فبعد أن سقط الاطمئنان إلى الكثرة عادت السكينة من مصدرها الصحيح.

ومن أدق لحظات التوكل أن تملك ما يكفي في حساب البشر ثم تبقى فقيرًا إلى الله. تشكر القوة، وتحسن استخدامها، وتطمئن إلى ربك لا إليها. فالافتقار الذي لا يظهر إلا عند العجز لم يُختبر بعد في ساعة القدرة.

يعقوب - السبب تحت الحكم -

وفي قصة يعقوب عليه السلام يضع القرآن هذا الميزان في قرار يومي لا ساحة قتال فيه. قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، ثم لم يترك الاحتياط يتحول إلى ضمان: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67].

نقل الطبري عن السدي وابن إسحاق أن يعقوب خشي عليهم العين، لكن وظيفة المشهد هنا لا تتوقف على تعيين هذا السبب: هناك احتياط أمر به، ومعه تصريح بأن هذا الاحتياط لا يدفع قضاء الله إذا جاء. الخطة صحيحة في بابها، وحَدُّها معلومٌ في الجملة نفسها.

تأمل اجتماع الألفاظ: أمرٌ بالتفرق في الدخول، ثم ﴿ۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، ثم ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، ثم ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾. لم يحتج يعقوب إلى إسقاط التدبير ليحفظ التوكل، ولا إلى إسكات التوكل حتى يبدو تدبيره جادًا.

الخطة تبقى تحت الحكم

ثم يقول القرآن بعد تنفيذهم ما أمرهم به أبوهم: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [يوسف: 68]. نفذوا الخطة، وبقيت تحت الحكم؛ لم تتحول الطاعة للتدبير إلى وثيقة أمان.

ويصف الله يعقوب عقب ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. قال الطبري: هو ذو علم لتعليم الله إياه، ونقل قولًا أنه عامل بما علم. فلا يصح أن نجعل التدبير والتوكل ضدين؛ كما لا يصح أن نحصر هذا الثناء في خطة الأبواب وحدها.

هذا الميزان يمتد إلى شؤون كثيرة بقدر ما يثبت فيها السبب المشروع: تستشير، وتتعلم، وتتداوى، وتخطط، وتحتاط، وتطلب خبرة أهلها؛ ثم لا تكتب في قلبك بعد أي خطة كلمة «مضمون». قيمة السبب أنه يُفعل في ملك الله، لا أنه يخرجك من ملكه.

المتوا كل يقول: ما دام الحكم لله فلا حاجة إلى التدبير. والمتعلق بالسبب يقول: ما دمت قد دبرت فقد أمنت.

ويعقوب يجمع ما فرقه الاثنان: خذ بما ترى أنه سبب، ثم اعلم أنه لا يغني عن الله من شيء.

يدٌ تعمل... وقلبٌ لا يركن

إذا تأملت هذه المشاهد معًا رأيت صورةً واحدة تتكرر بألوان مختلفة: بدر تملأ القلب افتقارًا، والأنفال تملأ اليد إعدادًا، وآل عمران تجمع المشاورة بالعزم والتوكل، وطالوت يحرر العين من سحر العدد، وحنين يكشف فتنة القوة بعد امتلاكها، ويعقوب يعلّمك أن تدبّر ثم تقول بقلبك قبل لسانك: الحكم لله.

فالسبب في ميزان القرآن ليس وهمًا يُترك، ولا ضمانًا يُركن إليه. هو فعل مأمور أو مشروع في بابه، له أثره الذي جعله الله فيه، لكن لا يستقل بالنتيجة ولا يملك المستقبل. وكلما اتسعت أدواتك ازددت مسؤوليةً في إحسانها، وازددت شكرًا لمن أعطاك إياها، وبقي افتقارك إليه كما هو.

تمام العمل أن تمتلئ اليد بما تستطيع، ويبقى القلب فقيرًا إلى الله. تبذل، وتحسن، وتستعين في أثناء البذل نفسه، ثم تمضي وقد عرفت حدك: أنت مسؤول عن السبب، أما الثمرة ففي ملك ربك. وكلما أحسنت عملك ازددت شكرًا، لا استغناءً.

القسم الثالث: حين يضعف أهل الحق ويُمهل الباطل

يبقى الميزان سهلًا ما دامت النتيجة تمضي في الطريق الذي يرجوه القلب. ويبدأ امتحانه الأشد حين لا تفعل: حين يُبذل السبب ثم يأتي القرح، أو يموت مؤمن قبل أن يرى الثمرة، أو يطول الانتظار، أو تتسع للباطل الدنيا. هناك لا يعود السؤال فكرةً في كتاب؛ يصير شيئًا يضغط الصدر كل يوم.

في هذه المواضع يظهر خطرٌ أدق من ترك الأسباب أو الاغترار بها: أن نحول ما تعلمناه إلى معادلة ميكانيكية. فنقول في سرائرنا: ما دمنا على الحق، وما دمنا قد أخذنا بما استطعنا من أسباب، فلا بد أن تأتي النتيجة التي نريدها الآن. فإذا لم تأتِ، بدأ القلب يطلب تفسيرًا سريعًا: أيكون الوعد قد تأخر؟ أيكون الطريق خطأ؟ أيكون بقاء الباطل دليلًا له؟

القرآن لا يجيب هذه الأسئلة بجملة واحدة؛ لأنه لا يصهر الوقائع المختلفة في سبب واحد. في أُحد يكشف مسؤوليةً بشريةً ووظائفَ للواقعة. وفي البروج يذهب إلى الحالة القصوى: يُقتل المؤمن، ثم يسمي مآله فوزًا. وفي تأخر النصر يثبت صدق الوعد من غير أن يسلمه إلى استعجالنا. وفي الإملاء والاستدراج يسحب من امتداد الباطل دلالة الرضا.

هنا يظهر عمق الامتحان. الألم يريد أن يفسر الوعد، والتأخر يريد أن يكتب موعده، وقوة الباطل تريد أن تغري القلب بقياس الحق عليها. والعبودية أن يبقى المؤمن صادقًا مع خطئه من غير انهيار، صادقًا مع رجائه من غير اشتراط، صابرًا من غير تأقيت، ثابت الميزان ولو طال عليه ما يرى.

1-3 أُحد: الهزيمة التي تكشف الأسباب وتمحّص الصف

مرَّت أُحد في القسم الأول من زاويةٍ واحدة: لا تجعل جرح اليوم حكمًا على الطريق كله. أما هنا فالسؤال مختلف: ما الذي كشفه الوحي عن هذه الهزيمة نفسها؟

والجواب القرآني لا يبدأ بتبرئة الصف لأنه صف المؤمنين، ولا بتحويل كل ما وقع إلى «ابتلاء» يذيب مسؤولية الإنسان. يقول الله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: 152].

هذه آية شديدة الصراحة: الوعد كان صادقًا، ثم دخل الفشل والتنازع والعصيان، وظهر تفاوت الإرادات، ثم وقع الصرف والابتلاء. فلا يُقال بعد هذا إن الحديث عن الأسباب البشرية يناقض الإيمان بالقدر؛ الوحي نفسه جمعهما في سياق واحد.

ومن دقة السياق أنه لا يكتفي بذكر العصيان، بل يكشف ما كان يعمل في الإرادة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾. ليست كل أزمة في الميدان ماديةً خالصة؛ فقد يبدأ الخلل في ترتيب المرادات قبل أن يظهر في قرار الميدان. يبقى الجسد في موضعه لحظةً، ثم تدفعه إرادة الغنيمة إلى قرار يغيّر المشهد.

ثم تأتي كلمة لا ينبغي أن تسقط من مشهد المحاسبة: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾. لم يحذف العفو اسم الخطأ، ولم يمنع الخطأ نزول العفو. وهكذا لا يربي القرآن صف الحق على ثقافة التبرئة ولا على ثقافة اليأس من نفسه. يسمي العصيان، ويكشف أثره، ثم يفتح باب الفضل.

ثم يواجه القرآن سؤالهم مباشرة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165]. وفسر الطبري هذا بما وقع من مخالفة أمر النبي ﷺ وترك الطاعة في الواقعة. هنا لا يسمح القرآن للصف أن يجعل هويته الإيمانية ساترًا عن المحاسبة: الحق الذي تحمله لا يعفيك من أثر فعلك.

والنفس المجروحة تميل إلى تفسيرٍ يريحها من مواجهة نفسها. يسهل أن تجمع كل أسباب الهزيمة في عدوها، ويصعب أن تفتح بابًا إلى الداخل. لكن القرآن يفتح هذا الباب برحمة الصدق: ماذا صنعنا نحن؟ أين فشلنا؟ أين تنازعنا؟ أين عصينا؟ ليس ليجلد القلب نفسه، بل ليعرف موضع الإصلاح الذي ما زال في يده.

لكن الخطأ المقابل أن نختزل أُحد كلها في جملة: «عوقبوا بذنوبهم»، ثم نغلق المصحف. فالسياق نفسه يفتح وظائف أخرى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ ثم ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 140-141].

والسياق يكشف كذلك أن الحدث الواحد لا يقع على القلوب بصورة واحدة. بعد الغم أنزل الله على طائفة أمنةً نعاسًا، ووصف طائفةً أخرى: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾

[آل عمران: 154]. المعركة ليست فقط امتحان خطة، هي أيضًا امتحان ما يظنه القلب بربه حين تسوء الصورة.

ولهذا لا يكون سؤال الهزيمة: ماذا حدث في الخارج فقط؟ بل ماذا فعلت الهزيمة بمعرفتي بالله؟ هل صرت أرى الوعد من خلال النتيجة، أم أرى النتيجة من خلال الوعد؟ هل يدفعني الجرح إلى توبةٍ وثبات، أم إلى ظنٍّ بالله لم يكن يظهر في أيام السعة؟

بهذا تتسع قراءة أُحد بدل أن تضيق في تفسير واحد: مسؤوليةٌ بشريةٌ سماها النص، وتمحيصٌ وابتلاءٌ ووظائف كشفها النص كذلك. المحاسبة تعمل في بابها، ومعنى القدر والحكمة في بابهما. وقوله ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ لا يدل على سبق جهل؛ فعلم الله سبحانه سابق محيط، والواقعة تُظهر في عالم الشهادة ما سبق به علمه وتتميز بها أعمال العباد.

المحاسبة التي لا تتحول إلى وهن

وإذا انفتح باب المحاسبة احتاج القلب إلى حراسة أخرى. فقد يرى تقصيره فينقلب صدقه مع نفسه إلى انهيار، أو يثقل عليه الجرح فيستكين. لذلك يضع القرآن أمامه صورة أناسٍ قاتلوا مع أنبيائهم: ﴿الٓمٓ﴾، ثم لم يكن ثباتهم ثقةً بالنفس، بل دعاءً: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 146-147].

هذه من أعدل صور القلب: يرى ذنبه فيستغفر، ويرى طريقه فيثبت. لا يحتاج إلى تبرئة نفسه حتى ينهض، ولا إلى احتقارها حتى يصدق في التوبة. يجتمع في دعائه اعترافٌ بالإسراف وطلبٌ لثبات القدم والنصر؛ كأن إصلاح الداخل والمضي في الخارج عبادة واحدة.

وفي هذا فسحةٌ عظيمة بعد الخطأ: ليس مطلوبًا أن تختار بين الصدق مع نفسك وحسن الظن بربك. تقرّ بما فعلت، وتطلب المغفرة، ثم تنهض إلى موضعك من جديد. العفو لا يمحو الدرس؛ يجعله بدايةً لا قبرًا.

حين يكون الجرح جرح جماعة تحمل همَّ الحق

قد يكون الاعتراف بالخطأ أشق على الجماعة من الاعتراف به على الفرد؛ لأنها تخاف أن يقرأ الناس اعترافها طعنًا في القضية التي تحملها. فينشأ إغراءٌ خفي بأن تدافع عن كل قرار باسم الدفاع عن الحق نفسه. لكن أُحد تهدم هذا الخلط في أصفى صورة: أصحاب رسول الله ﷺ هم خير تلك الأمة، والراية راية

الإسلام، ومع ذلك سمّى القرآن فشلًا وتنازعًا وعصيانًا، ثم أبقى الإيمان والعفو والوعد في مواضعها. لم يحتج الحق إلى إخفاء خطأ أهله كي يبقى حقًا.

وهذا يحرر الداعية من خوفٍ ثقيل: الإسلام لا يسقط باعترافك أن جماعتك أخطأت، والدعوة لا تُخذل حين تصحح وسيلتها، والمشروع لا يصير باطلًا لأن بعض اجتهاده كان ضعيفًا. بل قد يكون من نصرة الإسلام أن يكون الحق أحب إليك من صورة جماعتك عند الناس. والجرح الذي يفتح باب الصدق أرحم من نجاحٍ يغلقه.

فإذا جاء يوم تراجع فيه أثر دعوتك، أو خسر فريقك موقعًا، أو ظهر خطأٌ كان يمكن منعه، لا تتعجل إلى أحد طرفين: لا تجعل الإخفاق شهادةً ببطلان كل ما تحمل، ولا تجعل شرف ما تحمل عذرًا من المحاسبة. قف كما وقفت آل عمران بين ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ وبين ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا﴾: استغفارٌ لا يقتل العزم، وعزمٌ لا يهرب من الاستغفار.

ويبدأ السياق قبل ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139]. قيلت لهم بعد القرح، لا في نشوة انتصار. وفسر الطبري ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ بأن لهم العقبى في الظفر والنصرة. فاجتمع في الآية جرحٌ حاضر، ونهيٌ عن الوهن، ووعدٌ بالعاقبة؛ فلا يُسمح للجرح أن يكتب الحكم الأخير على موقعهم من الحق.

والعبد يحتاج هذا الجمع: أن يحزن ولا يُهزم بالحزن، وأن يعترف بالتقصير ولا ينقلب اعترافه إلى يأس، وأن يعرف أن القدر نافذ من غير أن يستعمل القدر ستارًا على الخطأ. هذه الحرارة لا تنتج من شعار «كن إيجابيًا»، بل من اجتماع الاستغفار والثبات في قلب واحد.

وبعد انتهاء القتال جاءت السنة بمشهد يكاد ينطق بعنوان هذا الكتاب. وقف أبو سفيان بعد أُحد يفاخر بالغلبة، وقال: «يومٌ بيوم بدر، والحرب سِجال»، ورفع شعار هبل والعزى. فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يجيبوه: «الله أعلى وأجل»، وأن يقولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم». (صحيح البخاري: 4043).

في هذا الحوار إقرار بحقيقة اليوم من غير تسليم للميزان الذي أراد المنتصر أن يبنيه عليه. نعم، وقع للمشركين يوم بعد يوم بدر؛ وسجال الحرب يصف انتقال الغلبة في الواقعة. لكن انتقال الغلبة لم يجعل هبل أعلى، ولم يجعل العزى وليًا، ولم يسوِّ بين الفريقين عند الله. تبدلت صورة الميدان، فكان جواب النبوة أن يثبت ما لا يتبدل بتبدلها: الله أعلى، والله مولى المؤمنين.

وهذا يمنع خطأين معًا: أن ننكر نتيجة اليوم لأنها آلمتنا، وأن نمنح نتيجة اليوم سلطةً على العقيدة والميزان. يمكن أن تقول بصدق: خسرنا هذه الجولة، أو غلب خصمنا في هذه الواقعة؛ ثم تبقى قادرًا على قول الحقيقة الأكبر من غير تناقض. التداول في الميدان لا يعني تداول الحق والباطل في القيمة.

2-3 البروج: حين يُقتل المؤمن ويبقى الفوز

لكن أُحد ـ مع قسوة جرحها ـ ليست أقصى امتحان للميزان. بقيت الجماعة المؤمنة قائمة، وانقلبت بعد ذلك أيام، وعرفنا من السيرة ما جاء بعدها. فماذا لو انتهت صورة الدنيا نفسها بموت المؤمن؟ ماذا لو لم يذكر النص نجاةً له، ولا انقلابًا للغلبة قبل موته؟

وتحرس السنة أصل السؤال قبل أن نبلغ صورة الأخدود القصوى. سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ فقال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»، وبيّن أن الرجل يبتلى على حسب دينه. (الترمذي: 2398، وابن ماجه: 4023، وقال الترمذي: حسن صحيح). وليس موضعنا استيفاء فقه البلاء؛ إنما القدر الذي يحتاجه الميزان هنا واضح: شدة ما ينزل بالعبد ليست في نفسها برهانًا على هوانه عند الله أو فساد طريقه، وإلا كان الأنبياء أولى الناس بهذا الاستدلال الباطل.

هنا تأتي سورة البروج بمشهد لا يسمح للقلب أن يهرب إلى التفسير المريح: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: 4-8].

الجريمة هنا مكشوفة بلا التباس: لم يُحرقوا لأنهم ظلموا أصحاب الأخدود، ولا لأنهم خانوا عهدًا، ولا لأنهم خسروا معركة. ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾. ومع ذلك لا يضع القرآن في المشهد إنقاذًا دنيويًا يسكّن به سؤالنا.

والسورة لا تعبر عن بطش عابر؛ ترسم الجلادين في موضعهم: ﴿الٓمٓ﴾.

لا تحتاج هذه القوة إلى وصف زائد. أصحاب الأخدود جالسون يشهدون ما يفعلون، والمؤمنون هم الذين تقع عليهم النار.

لو قُرئ المشهد بعين اللحظة وحدها، لما احتاج الحكم إلى شرح.

لكن القرآن لا يترك العين وحدها. يضع فوق الجلاد والضحية وصفًا لا تراه النار: الله ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: 8-9]. من يملك المشهد في الأرض لا يملك الملك، ومن يشهد التعذيب ليس الشاهد الأخير.

العزيز الحميد في قلب مشهد النار

قف هنا قبل أن تنتقل إلى النتيجة. السورة كان يمكن أن تذكر الجريمة ثم تقفز إلى الوعيد، لكنها أدخلت معرفة الله في قلب المشهد نفسه: ﴿حمٓ﴾. النار مشتعلة، والمؤمنون يُفتنون، ومع ذلك لا يتغير الاسم الذي يعرفون به ربهم: العزيز، الحميد.

ف ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: لا تجعل العين تمكن الجلاد من الجسد فتتوهم أن العزة انتقلت إليه. قدرته محدودة بموضعه وزمنه، وملك الله لا ينقص منه شيء. و ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: يبقى سبحانه محمودًا وإن ضاق علم العبد عن الحكمة، وإن لم ير المؤمن في تلك الساعة المشهد الذي كان يتمنى أن يراه. ليست عبودية الحمد رهينة أن تنتهي الواقعة في الدنيا بالصورة التي تريح القلب.

ثم يوسع القرآن سقف المشهد كله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. أصحاب الأخدود يملكون حفرةً وناراً وسلطةً على أجساد قوم؛ لكنهم لا يملكون الأرض التي يقفون عليها، ولا السماء فوقهم، ولا الآخرة التي يمضون إليها، ولا المصير الذي سيصير إليه فعلهم. حين يدخل «ملك السماوات والأرض» في الصورة، تنكمش سلطة الجلاد إلى حجمها الحقيقي من غير أن ينقص ألم الضحية.

ثم تأتي الكلمة التي ترد الشهادة إلى صاحبها: ﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾. هم ﴿شُهُودً﴾ على ما يفعلون بالمؤمنين، لكن شهودهم ليس آخر الشهود. قد ينفرد الظالم بالمشهد حتى يظن أن لا أحد فوقه يراه، وقد يموت المظلوم قبل أن يسمع إنصافًا من الناس؛ ثم تبقى هذه الكلمة فوق النار: الله شهيد. في موضعٍ كهذا لا تكون معرفة الله إضافةً إلى القصة؛ هي التي تحفظ للقصة معناها.

ثم تأتي المفاجأة في تعريف النتيجة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: 10-11].

وقال الطبري: تدخل في الآية أولئك المؤمنون الذين حرّقهم أصحاب الأخدود، وإن «الفوز الكبير» هو ظفرهم في الآخرة بما طلبوه بإيمانهم وطاعتهم. المشهد الدنيوي يقول: الجسد أُحرق. والوحي لا ينكر ذلك؛ لكنه يرفض أن يجعل الاحتراق تعريف الخسارة، كما يرفض أن يجعل بقاء الجلاد تعريف الفوز.

دع تسمية القرآن للمآل تستقر قليلًا: ﴿لِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾. لم يسمِّ القرآن النار فوزًا، ولم يطلب منا أن نحبها، ولم يجعل موت المؤمنين شيئًا صغيرًا. أبقى النار نارًا، والقتل قتلًا، ثم كشف أن قاموس الدنيا لا يملك وحده تعريف النتيجة. قد يخسر الجسد موضعه من الأرض، ولا يخسر العبد ما عند ربه.

وهذا موضع يحرر قلب الداعية أيضًا. هو يحب أن يرى الناس يستجيبون، وأن يبقى أهل الحق، وأن تُحمى الدماء، وأن يظهر الدين؛ وكل ذلك محبوب مشروع. لكنه إذا جعل صدق الطريق متوقفًا على أن يشاهد بعينه كل ثمرة، ضاق ميزانه عن سورة البروج . العبودية أوسع: تعمل للنجاة والنصر والفتح، وتبذل لها، ثم تعلم أن ربك لم يجعل فوز المؤمن محصورًا في الصورة التي يستطيع الناس تصويرها في آخر اليوم.

لا تساوِ بين القتل والخسارة

هذا المعنى لا تنفرد به السورة. يقول الله: ﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 74]. تأمل طرفي الجملة: «فيُقتل» أو «يغلب»؛ نتيجتان مختلفتان في الدنيا، لكن الأجر العظيم لا يُحصر في واحدة منهما.

ويقول في قتلى أُحد: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: 169-170]. العين ترى غيابهم عن الدنيا؛ والوحي يكشف حياةً وكرامةً لا تراها العين.

وفي سورة محمد: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: 4-6]. حتى العمل الذي قد يبدو للمتفرج أنه انقطع بموت صاحبه، يعلن القرآن أنه لم يضع.

وتجيء آية البيع فتزيد المعنى وضوحًا: ﴿الٓمٓ﴾ ثم ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]. دخول «يُقتلون» في عقد البيع نفسه يمنع الموت من أن يُسمى وحده فشل الصفقة.

وفي السيرة أخذ هذا الميزان صورةً تمس المال لا الدم وحده. لما أراد صهيب رضي الله عنه الهجرة منعته قريش أن يخرج بنفسه وماله، فعرض أن يجعل لهم ماله ويخلوا سبيله، ففعلوا. فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: «ربح صهيب، ربح صهيب». أخرجه ابن حبان (7082)، وصحح إسناده البوصيري، وصححه ابن حجر في المطالب العالية.

في ظاهر الحساب خرج صهيب من مكة وقد ترك مالًا يملكه. ثم جاءت كلمة النبي ﷺ فغيّرت اسم المشهد: ربح صهيب. لأن الميزان لم يقف عند ما خرج من اليد، بل نظر إلى ما حُفظ من الدين وما ابتُغي به وجه الله. وقد ينقص الحساب المادي ولا تكون الصفقة خاسرة في الميزان الأعلى؛ من غير أن يعني ذلك وعدًا بعوض دنيوي لكل فقد.

وفي سورة الصف ترتيبٌ بالغ الدلالة : المغفرة والجنة ثم ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، وبعدها: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ [الصف: 12-13]. النصر محبوب وبشارة، وليس شيئًا هينًا؛ لكن القرآن لم يجعل تمام معنى الفوز متوقفًا عليه. هذه الموازنة تمنع طرفين معًا: دنيوية الفوز، والزهد المصطنع في النصر.

وتأتي السنة فتجسد هذا المعنى في حديث الغلام وأصحاب الأخدود في صحيح مسلم (3005)؛ حتى إذا جاءت امرأة ومعها صبي فتقاعست أمام النار، قال لها صبيها: «يا أمه، اصبري فإنك على الحق». لم يعدها بنجاة عاجلة، بل ثبّت الشيء الذي لا تغيره النار: أنها على الحق.

وفي الحديث نفسه قُتل الغلام أولًا، فآمن الناس، ثم حفر الملك الأخاديد وأضرم النار لمن أبى الرجوع. لم تنته القصة بانتصار عسكري للمؤمنين؛ بل بثباتهم على ما آمنوا به. ومع ذلك لا نستخرج منها قانونًا أن موت الداعية يفتح القلوب حتمًا، أو أن طلب الهلاك طريق للنصر؛ هي قصة تكشف منزلة الحق حين تصبح النجاة ثمنًا للتراجع عنه.

ويحفظ القرآن والسنة للسلامة والنصر قدرهما كذلك. العافية تُطلب، والدم معصوم، وأسباب القوة مأمور بها؛ وفي الصحيحين قال النبي ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية» (صحيح البخاري:

3024، وصحيح مسلم: 1742)؛ فإذا وقع اللقاء كان الصبر. فالفوز الأوسع لا يهوّن الدم، وإنما يمنع السلامة الدنيوية من أن تصبح الشرط الوحيد لصدق الطريق.

وهكذا يتحرر القلب من أن يجعل السلامة إلهًا من غير أن يزهد فيها. يسأل العافية، ويحفظ الدم، ويدفع الظلم، ويأخذ بأسباب النجاة؛ ثم يعرف أن قيمة الطاعة أوسع من أن تتوقف على أن تمنحه الأيام سريعًا الصورة التي يسميها الناس ربحًا.

قد ترى الشيء رؤيةً صحيحة: هذا المؤمن مات، وهذا الظالم بقي. لكن الخبر لا يملك وحده أن يكتب قاموس الفوز والخسارة: مات لا تساوي خسر، وبقي لا تساوي فاز. هنا يصلح الوحي اسم النتيجة قبل أن يطلب منك أي تحليل للتاريخ.

لكن ماذا عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾؟

بعد البروج يبرز سؤال لا يصح أن يمر عليه الكتاب سريعًا. إذا كان المؤمن قد يُقتل ويبقى فائزًا، فكيف نفهم مع ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: 51]؟ فالآية لا تعد بالنصر في الآخرة فقط، نصت على «الحياة الدنيا». والقرآن نفسه ذم أقوامًا بأنهم ﴿يَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ﴾. فكيف يجتمع الخبران؟

هذا السؤال قديم، وقد طرحه الطبري عند تفسير الآية نفسها بصراحة: كيف تكون النصرة في الدنيا وقد نال بعض الأنبياء من أعدائهم ما نالهم؟ ثم ذكر في الجواب وجهين. أحدهما أن للنصر صورًا متعددة في الدنيا: فقد يكون بإظهار الرسول على مكذبيه وغلبته لهم، وقد يكون بإنجائه وإهلاك من كذبه، وقد يقع الانتقام من قتلة الرسول أو أعدائه بعد وفاته؛ فلا يلزم من الوعد أن ينجو كل رسول من كل أذى، ولا أن يشاهد كل مؤمن بعينه صورة الغلبة التي يتخيلها قبل موته. وذكر وجهًا آخر يحمل عموم اللفظ على رسول الله ﷺ والذين آمنوا به.

وذكر مفسرون آخرون وجوهًا من النصرة كإعلاء الحجة والانتقام من الأعداء. والمهم هنا ألا نحصر كلمة «النصر» في صورة واحدة ثم نحاكم الوعد إليها. النصر القرآني ليس اسمًا مساويًا دائمًا لسلامة الجسد في كل مواجهة، ولا لربح كل جولة عسكرية، ولا لأن يرى كل فرد نتيجةً دنيوية مكتملة قبل موته. وفي الوقت نفسه لا يجوز أن نفرغ الآية من دنياها فنحوّل النصر كله إلى معنى باطني؛ فالآية قالت: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، والقرآن قصّ من صور النصر الدنيوي نجاةً وغلبةً وإهلاكًا للمكذبين وتمكينًا ظاهرًا.

وهنا تتكامل غافر مع البروج بدل أن تتعارضا. البروج تمنعك من القول: «قُتل إذن خسر». وغافر تمنعك من القول المقابل: «إذا وُعد بالنصر فلا بد أن ينجو كل مؤمن ويغلب خصمه في كل واقعة». الأولى توسع معنى الفوز حتى الآخرة، والثانية توسع معنى النصر فلا تحصره في لقطة تكتيكية واحدة. وبينهما يبقى الدم حرامًا، والعافية مطلوبة، والقوة مأمورًا بأسبابها، والنصر الدنيوي نعمةً محبوبة؛ لكن شيئًا من ذلك لا يملك وحده أن يعيد تعريف وعد الله.

بعد هذا التحرير ينتقل السؤال من صورة النصر إلى زمنه: إذا كان وعد الله حقًا، فكيف يعيش القلب الطريق حين يطول ولا يملك موعد تمامه ؟

3-3 تأخر النصــر -صــدق الوعد لا يعني توقيتًا بحســب استعجالنا-

إذا كانت البروج تختبر الميزان عند الموت، فهناك امتحان آخر أقل حدة في الصورة وأطول أثرًا في النفس: الانتظار. قد يبقى المؤمن حيًا، ويعمل، ويدعو، ولا يرى ما يرجوه. والضغط هنا ليس في لحظة واحدة؛ إنه يتكرر مع الأيام حتى يصير السؤال نفسه جزءًا من البلاء.

يقول الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

لا يصف النص انتظارًا هادئًا من بعيد؛ ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾. وصل الضغط إلى أن يُقال: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾. ثم لا يرد القرآن بجدول ولا تاريخ، بل بيقين: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

«ولكنكم تستعجلون»

قال خباب بن الأرت رضي الله عنه: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة، وقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فذكر النبي ﷺ من كان قبلهم: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه... والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون». رواه البخاري (3612).

تأمل موضع الحديث قبل أن نغادره. خباب رضي الله عنه لا يسأل عن ترفٍ فاته، يشكو أذى قومٍ يريدون أن يثبتوا على دينهم. والنبي ﷺ لا يوبخهم على طلب النصر، بل يفتح أمامهم زمنًا أطول من زمن الألم: مؤمنون قبلهم شُقّ بعضهم بالمنشار ولم يتركوا دينهم، ثم وعدٌ بتمام هذا الأمر، ثم الكلمة التي تكشف ضغط اللحظة: «ولكنكم تستعجلون».

الصبر هنا ليس أن يكون الألم خفيفًا. هو أن يبقى الوعد كبيرًا في القلب حين تصبح الأيام طويلة، وأن لا تتحول حرارة الدعاء إلى مطالبةٍ لله بموعدٍ لم يسمّه. تستطيع أن تقول: يا رب انصر، يا رب فرّج، يا رب ارفع؛ وتبقى في الوقت نفسه عبدًا يعلم أن الساعة له سبحانه.

حين يكون الانتظار عمرَ دعوة

وقد يقرأ حديث خباب داعيةٌ لا ينتظر لنفسه شيئًا خاصًا؛ ينتظر أن يرى أثر كلمة قالها منذ سنين، أو جيلًا يتربى، أو بابًا من أبواب العلم يفتح، أو ضعفًا عن المسلمين يزول، أو حقًا يحبه يعلو في الناس. وقد تمر أعوامٌ وهو يضع لبنةً فوق لبنة، ثم ينظر فلا يرى من الصورة الكبرى إلا القليل. هنا يصبح الزمن نفسه امتحانًا: هل كانت العبادة في النتيجة التي يريدها فقط، أم في حمل الأمانة يومًا بعد يوم؟

ومن أشرف ما يحمل المؤمن أن يحب عز الإسلام وظهور الهدى، وأن يتألم لضعف المسلمين، وأن يشتاق إلى يوم يرى فيه الناس أقرب إلى طاعة الله. هذا الحب لا يحتاج إلى تبريد؛ يحتاج إلى تصفية. لا يتحول إلى تحديد موعدٍ لم يحدده الله، ولا إلى استباحة وسيلةٍ حرّمها الله بحجة استعجال النصرة، ولا إلى يأسٍ من العمل لأن جيله لم ير تمام الثمرة.

وتظهر صفوة هذا الحب حين يكون الإسلام أكبر في قلب الداعية من جماعته ومن اسمه ومن فكرته الخاصة. فإذا جاء خيرٌ على يد غيره فرح به، وإذا ظهر خطأ في اختياره رجع، وإذا سبقته جماعة إلى نفعٍ حمد الله بدل أن يحزن لفوات النسبة إليه. عندئذ لا يعود «انتصار الدعوة» اسمًا مستعارًا لانتصار الذات؛ يصير فرحًا بأن يُعبد الله ويظهر الحق، من أي بابٍ مشروع جاء.

﴿يسٓ﴾ [يس: 1]

وفي سورة الشرح يأتي الرجاء في صورةٍ لا تفصل اليسر عن العسر فصلًا بعيدًا: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5-6]. العسر حاضرٌ ومسمّى، واليسر حاضرٌ معه في وعد الله. فلا يُطلب من القلب أن ينكر الضيق حتى يرجو؛ الرجاء يولد وهو يعرف اسم الضيق.

ثم لا تنتهي السورة عند البشارة، بل تمضي بالعبد إلى العمل والوجهة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَبْ﴾ [الشرح: 7-8]. فاليسر ليس إجازةً من العبودية، ولا العسر مبررًا لتركها. في الحالين يبقى للنفس نَصَبٌ لله، ويبقى للقلب اتجاهٌ واحد: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَبْ﴾.

ومع ذلك تبقى البشارة نافذة رجاء، لا ورقةً نرسم عليها من عندنا شكل اليسر وموعده. يكفي القلب أنه لا يساوي بين طول العسر وغياب رحمة الله، وأن وراء ما يراه علمًا لا يحيط به، وتدبيرًا لا يتوقف على أن يفهمه الآن.

وربما كان أشق ما في الانتظار أن العبد يصبر على الألم ساعةً، لكنه لا يصبر على جهل المدة. يريد أن يعرف: إلى متى؟ فإذا حُجب عنه الجواب، صار الزمن نفسه ميدان عبودية. هنا لا يكون الصبر مجرد تحمل الوجع، بل تحمل أن تعمل ولا تملك جدول النتيجة.

الوعد يقينٌ حيث نطق كلام الله، والتوقيت غيبٌ حيث سكت. وحين يستقر هذا الفرق يصفو الرجاء: لا يحتاج إلى موعدٍ تصنعه النفس حتى يبقى حيًّا، ولا إلى سيناريو واحد حتى يصدق. يثق العبد بما قاله ربه، ثم يعود إلى يومه فيمشي فيه.

ومن تمام الرجاء أن نقرأ كل وعد في حدوده: لمن ورد، وما شروطه، وما الصورة التي نص عليها. بهذا يبقى الوعد قويًا كما أنزله الله، فلا نحمله ما لم يقل ثم نتعب من حملنا نحن.

ويخاطب الله نبيه ﷺ بما يرسخ هذا المعنى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 34]. صبرٌ على تكذيب، وصبرٌ على أذى، وامتدادٌ حتى يأتي النصر، ثم تقرير لا يتغير: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

الصبر ليس غرفة انتظار

هنا نحتاج إلى ما بناه القسم الثاني: الصبر القرآني لا يعني ترك السبب وانتظار الخارق. الرسل الذين صبروا بلّغوا ومضوا في أمر الله ولم يثنهم الأذى عن رسالتهم؛ فالطبري في الأنعام 34 يصفهم بأنهم لم يثنهم التكذيب والمكروه عن المضي في أمر الله حتى جاء نصره. فالصبر ليس فراغًا بين وعد ونتيجة؛ هو عبودية الزمن الذي لا تملكه وأنت تؤدي العمل الذي تملكه.

ولهذا تتكرر في القرآن الصلة بين الوعد والصبر: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ (الروم: 60، وغافر: 55). كأن القلب حين يطول عليه الطريق يحتاج إلى أمرين معًا: أن يثبت في العمل، وأن يحرس معنى الوعد من أن تلتهمه الساعة الراهنة.

وفي ختام سورة الروم يقول الله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60]. وفسر الطبري ذلك بألا يستخف المشركون حلم النبي ﷺ ورأيه فيثبطوه عن أمر الله وما كُلّف من تبليغ رسالته. فالصبر هنا ليس احتمال الزمن فقط؛ هو ثبات العقل والقلب والعمل أمام ضغط من لا يوقن، حتى لا ينقلك استعجالهم من أمر الله الذي تعرفه إلى ميزانهم هم.

والاستعجال ليس دائمًا تكذيبًا للوعد، كثيرًا ما يكون صرخة تعب ورغبةً صادقة في زوال الألم. لكن التعب يحتاج هو أيضًا إلى عبودية، حتى لا يتحول الدعاء في القلب إلى شرط: ينبغي أن يقع ما أريد الآن، وإلا اضطرب معنى الوعد. للمؤمن أن يسأل الفرج بإلحاح، وأن يتألم، وأن يعمل؛ ويبقى توقيت الله لله.

ونحن نقرأ القصص بعد اكتمالها نملك هدوء النهاية، بينما كان أهلها يعيشون قلق المنتصف. ومن الإنصاف أن نتذكر هذا الفرق. فلا نحاكم قلبًا يزلزل بالبأساء والضراء بعلمٍ لم يكن قد كُشف له بعد؛ القرآن نفسه سمّى شدة اللحظة، ثم فتح حولها أفقًا أوسع.

لهذا لا يصنع القرآن من الصبر سكونًا. ما دام آخر القصة ليس في يدك، فبين يديك شيء آخر كامل القيمة: طاعتك في هذه الساعة. تمضي في الدعوة، وتعدّ ما تستطيع، وتدفع الظلم بما شرع الله، وتثبت على الحق. الذي لا تملكه هو أن تأمر اليوم أن يكون آخر الطريق.

وقد يبلغ الصدق بالعبد أن يموت قبل أن يرى الشيء الذي دعا له سنين، مع أنه بذل ما استطاع إليه. ليست الثمرة قليلة الشأن، ولكن الله لم يجعل قيمة الطاعة رهينةً بأن تقع الثمرة داخل العمر الذي يراه صاحبها. يكفيه أن يلقى الله وقد أدى أمانة يومه.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2]

ويأتي القرآن بصورةٍ أقرب إلى البيت من ميدان القتال. في أحكام الطلاق، حيث تضيق العلاقات وتتداخل الحقوق والخوف على المستقبل، يكرر الله الأمر بالتقوى، ثم يفتح في قلب الضيق نافذةً لا يملك الإنسان تحديد جهتها: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3].

المخرج هنا لا يبدأ من خيالٍ يهرب به الإنسان من واقعه، الآيات في قلب أحكام وحدود يجب أن تُراعى. يعمل العبد بما أمره الله، ويتقيه في القرار والحق، ثم لا يحصر أبواب الله في الباب الذي حسبه وحده. وقد يأتي الرزق ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؛ من جهةٍ لم تكن في دفتر حسابه أصلًا.

ثم تجمع الآية التوكل والقدر في عبارةٍ تكاد تكون ميزان هذا الباب كله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3]. التوكل ليس وعدًا بأن تختار أنت صورة المخرج؛ بل اعتماد القلب على الله وثقةٌ بكفايته، وهو يمضي في حدود الله؛ فالله سبحانه حسب من توكل عليه. وأمر الله بالغ، وقد جعل للأشياء حدودًا وآجالًا وأقدارًا تنتهي إليها؛ فلا يملك استعجالنا أن يقدّم ما قدّره الله أو يؤخره.

وهنا يقترب المعنى من البيت والقلب: بابٌ أغلق، علاقةٌ انتهت، رزقٌ ضاق، طريقٌ لم يتم. قد يكون واجبك واضحًا والمآل غائبًا. فتكون التقوى عملك الآن، والتوكل سكينة قلبك، والمخرج فضلًا من الله لا تشترط عليه الجهة التي يأتي منها.

التقوى عمل الساعة، والتوكل قلبها، والمخرج فضل الله، والقدر له أجله. وقد يطول الطريق، وقد لا يرى الإنسان كل ما يرجوه في عمره؛ لكن طول الطريق لا يسقط عمل الساعة، ولا يطفئ الرجاء في ربٍّ بالغ أمره.

4-3 الإملاء والاســـتدراج: لماذا لا تكون مهلة الباطل شهادةً له؟

وبقي السؤال الذي يفتن القلب من الجهة الأخرى. ليس فقط أن يتأخر ما يرجوه المؤمن، بل أن يرى الباطل في أثناء ذلك يتسع: قوة، وأموال، وأبواب، وقدرة على الحركة، وربما استقرارًا طويلًا. هنا تتحول المهلة نفسها إلى حجة في عين المتفرج: لو كان هذا الطريق باطلًا، فلماذا تُفتح له الدنيا؟

القرآن يهدم أصل هذا الاستدلال قبل أن يجيب عن توقيت السقوط: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم: 44-45].

وفي الأعراف يجيء التركيب نفسه تقريبًا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: 182-183]. تكرار الجمع بين الاستدراج والإملاء

يبين أن تأخر الأخذ نفسه قد يكون جزءًا من التعامل الإلهي مع المكذب، لا فراغًا خرجت فيه الأحداث من سلطان الله.

جمع القرآن بين الاستدراج والإملاء، وفسر الطبري الاستدراج بتمتيع المكذبين حتى يظنوا ذلك خيرًا فيتمادوا، والإملاء بإمهالهم زمنًا. هكذا يكشف النص أن السعة قد تكون في بعض الأحوال جزءًا من الأخذ المؤجل، وأن الزمن الطويل نفسه واقع تحت تدبير الله.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178]. هذه الآية فيمن سمّاهم النص، فلا نحولها إلى تصريح لنا بأن كل من طال رخاؤه اليوم داخل في هذا الحكم بعينه. لكن معناها يكفي لهدم القاعدة الفاسدة: طول المهلة لا يساوي خيرًا عند الله.

ويعرض القرآن صورة أكثر إيلامًا لعين المتفرج: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]. الفتح هنا ليس تزكية؛ بل جاء في السياق طريقًا إلى الأخذ.

ويواجه القرآن استدلالًا قريبًا بصيغة سؤال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55-56]. المال والبنون حقائق ظاهرة، لكن نقلها إلى حكم «نسارع لهم في الخيرات» هو الخطأ. مرة أخرى: المشكلة ليست في رؤية النعمة، بل في المعنى الذي ألصقته بها.

لا تحوّل المفهوم إلى تشخيص

ويبقى تعيين الواقع المعاصر بابًا آخر: النص سمّى أحوالًا بعينها استدراجًا، أما القوة أو الرخاء في زماننا فلا تحمل بطاقةً نقرأ منها الغيب. قد تكون النعمة فضلًا وابتلاءً بالشكر، وقد تكون السعة استدراجًا حيث دل الوحي، ومهمتنا أن نثبت المفهوم من غير أن ننتحل علم التشخيص.

وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» (صحيح البخاري: 4686، وصحيح مسلم: 2583)، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ

وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]. الحديث يثبت الإمهال ثم الأخذ، ولا يعطينا موعد الأخذ.

والحديث يضع زمن الإمهال كله تحت الملك: يملي الله للظالم، ثم يأخذه إذا شاء. فلا يبقى التأخر فراغًا ولا عجزًا، يبقى زمنًا لا نعرف آخره، لكنه لا يخرج لحظةً عن قدرة الله.

وأمام اتساع الباطل يظهر نوع آخر من العبادة : أن لا تضطر إلى حسده كي تفسر نجاحه، ولا إلى استعجال سقوطه كي يثبت يقينك. تثبت على الحق، وتعلم أن من أُمهل لم يخرج من قدرة الله، وأن واجبك الأول أن تحفظ ميزانك أنت وألا تبيعه تحت ضغط ما تراه ناجحًا أمام الناس.

وقد يكون هذا الامتحان شخصيًا جدًا: ترى طريقًا أسهل لأنه أقل التزامًا، أو نجاحًا سريعًا بوسيلة لا ترضاها، فيهمس لك الواقع أن تقلد قبل أن تسأل. هنا يصير ثبات المعيار عبادةً خفية؛ أن تعرف أن نجاح الوسيلة في الوصول لا يحولها إلى حق.

وقد يكون جماعيًا كذلك. يرى الداعية خطابًا أشد إثارةً يحصد الناس سريعًا، أو يرى مشروعًا لا يتحرج من وسيلةٍ تراها الشريعة أو الأخلاق ممنوعة فيتسع أثره، أو يرى خصمًا فكريًا يملك أدواتٍ أقوى وانتشارًا أسرع. هنا يأتي امتحان دقيق: هل يتحول نجاح الوسيلة إلى حجةٍ على مشروعيتها؟ وهل ينسى القلب أن الله لم يأمره فقط أن يصل، بل أن يصل وهو عبد؟ قد يكون من أثقل الصبر أن تظل وفيًّا للحق حين ترى طريقًا أقصر لا تستطيع أن تسلكه لله.

حين لا تأتي الصورة التي تريدها

وهنا تعود سورة آل عمران لتغلق الدائرة بآيتين تكادان تلخصان عبودية هذا القسم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 196-197]. التقلب موجود، والقرآن لا يطلب منك إنكاره، بل ألا يغرك.

ثم يختم السورة خطابها للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]. بعد أُحد، وبعد حديث النفاق وأهل الكتاب وتقلب الكافرين، لا تكون الخاتمة: افهموا كل أسرار التاريخ. بل: اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله.

وعند الطبري: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ على دينكم وطاعة ربكم، و ﴿صَابِرُواْ﴾ أعداءكم حتى لا يكونوا أصبر منكم، و ﴿رَابِطُواْ﴾ في سبيل الله، ثم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فلا تخالفوا أمره. هذه ليست خاتمة تعلم المؤمن سرّ كل واقعة، بل تعلمه كيف يقف داخل الواقعة: ثابتًا على الطاعة، صابرًا أمام خصمه، قائمًا على ثغره، متقيًا لله حتى لا يجعل طلب النصر مبررًا لمخالفة ما أمر به.

وهكذا لا تذوب حرارة الإيمان في التحليل. المؤمن لا يقرأ الأيام ليصبح أبرع في التعليق على صعود القوى وسقوطها، يقرأها ليعرف أين يقف هو مع الله حين يجرح، وحين ينتظر، وحين يرى باطلًا ممهلًا. ثم يقوم بما أُمر به في يومه.

وبعد أن استقام القلب داخل المرحلة، يبقى سؤال آخر: كيف يوسّع القرآن زمن النظر نفسه؟ كيف ينقلنا من حادثة منفردة إلى مسار، ومن استضعاف إلى كرّة، ومن قوة عابرة إلى عاقبة؟ هناك يبدأ القسم الرابع: اقرأ المسار بالعاقبة.

القسم الرابع: اقرأ المسار بالعاقبة

من أعجب ما يفعله القرآن بالزمن أنه يضع أمام القارئ في صفحات قليلة ما عاشه أهل القصة أعوامًا متطاولة. أهل الحدث لا يملكون إلا يومهم: خوفه، وضغطه، وما ظهر لهم فيه. أما قارئ الوحي فقد يريه الله أول الطريق وآخره، ثم يعيده إلى منتصفه فيسمع من داخله شكوى من لم يكن يعرف بعد كيف ستنتهي القصة.

ومع هذه السعة يتغير موضع القلب من اللحظة. فاللحظة حين تنفرد بالوعي تضيق حتى توشك أن تقول: هذا هو الممكن كله. أما حين يضعها القرآن داخل مسار أطول فإنها تبقى حقيقية ومؤلمة أو مفرحة، لكنها تفقد حقها في احتكار القصة.

القرآن لا يعطينا نهايات قصص السابقين لننسخها على حاضر لم يكشف الله مآله. يمنحنا شيئًا أهدأ وأبقى: عينًا تعرف أن الحدث موضع في طريق، وأن من يقف في منتصف الطريق لا يرى بالضرورة معناه كله، وأن ما كشفه الله من مآلات السابقين يوسّع قلب المؤمن من غير أن يحوّله إلى متنبئ.

ولهذا يكون سؤال هذا القسم: ماذا يحدث للقلب حين لا يعود الحاضر هو الزمن الوحيد الذي يراه؟

1-4 حين يريك القرآن آخر القصة من أولها

تبدأ سورة القصص بصورة مكتملة العلو والقهر: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4]. هذا هو المشهد الذي يراه من يقف في تلك الساعة: فرعون في العلو، وبنو إسرائيل في الاستضعاف، والقتل أداةً لحفظ السلطان.

لكن القرآن لا ينتظر نهاية القصة حتى يخبر قارئه أن هذه ليست الصورة الأخيرة. يضع بجوار فعل فرعون مباشرة إرادةً أعلى من إرادته: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 5-6].

هذه طريقة قرآنية في ترتيب النظر قبل أن تكون خبرًا عن نهاية معلومة لنا. فرعون يتصرف داخل القصة ليمنع ما يخافه، والقارئ قد عرف منذ أولها أن سلطانه نفسه لا يملك أن يغلق الطريق الذي أراده

الله. وبين الآيتين لا يتغير الواقع بعد: الذبح لم يتوقف، والاستضعاف لم ينته، وفرعون لم يسقط. الذي تغير أولًا هو أفق القارئ.

والتفسير هنا محدد لا يحتاج إلى توسيع سياسي: فالطبري يجعل الذين استضعفهم فرعون في الآية بني إسرائيل أنفسهم. فالخبر عنهم، ولا يصح أن يتحول إلى وعد مجرد بأن كل جماعة مستضعفة ستنال صورة التمكين نفسها. لكن هذا القيد لا يضيق أثر القصة، بل يحفظه نقيًا. نحن لا نستعير نهايتها لنكتب مستقبلنا، وإنما نتعلم منها كيف يضع الوحي المرحلة داخل مسار كشفه الله.

ثم تصغر القصة إلى قلب أم واحدة، فيعيد القرآن الفعل نفسه على مقياس يكاد يمس القارئ بيده . امرأة تخاف على رضيعها من بطش فرعون، فيأتي الأمر الذي يزيد ظاهر الخوف خوفًا: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

القارئ يعرف في لحظة الإلقاء ما لا تعرفه العين لو انفردت بالمشهد: هذا الطفل الذي خرج من يد أمه إلى الماء محاط بوعد الرد، بل بمآل أبعد من الرد: ﴿الٓمٓ﴾. ثم تمضي الآيات خلال الخوف والالتقاط وقلق الأم حتى تأتي جملة قصيرة تحمل نهاية ذلك الجزء من الطريق: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 13].

بين ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ و ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِ﴾ كان قلب أم موسى يعيش ساعات لا نقرأ نحن إلا كلماتها. وهنا تظهر نعمة قارئ القرآن: الله يريه الخوف وهو داخل سياق لم يكن أهل اللحظة يملكون نهايته. لا لكي يهون الخوف، بل لكي يعرف أن الخوف نفسه قد يكون فصلًا لا عنوان الكتاب كله.

والآية نفسها تحمل حركة القلب كلمةً كلمة: خوفٌ حقيقي في ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾، ثم فعلٌ يبدو على ظاهر العين أشد من الخوف: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، ثم نهيان يمسان قلب الأم مباشرة: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾، ثم وعدان: ﴿الٓمٓ﴾. ليس في الآية قلبٌ بلا أمومة ولا خوف؛ فيها قلبٌ خائف يحمل الوعد وهو يفعل ما أُمر به.

ولا يرث القارئ وعد أم موسى الخاص فيصنع منه ضمانًا لرد كل مفقود إليه. لكنه يرث شيئًا آخر: أن الوحي لا يسخر من ارتجاف القلب وهو في منتصف الطريق، وأن معرفة الرب تستطيع أن تسكن إلى

جوار الخوف قبل أن تظهر النتيجة. في أخصّ ما يمس الإنسان — ولد، بيت، مستقبل — يبقى باب العبودية مفتوحًا حتى حين لا يملك من الغد إلا ما أخبره الله به.

والمشهد الأكبر يعيد المعنى بعد سنين. لما اشتد بطش فرعون، قال قوم موسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: 129]. هذه عبارة من يعيش داخل الوسط: الماضي أذى، والحاضر أذى، ولا يرى بعينه بعدُ إلا امتداد الخط نفسه. فيجيبهم موسى بما يربطهم بالله والعمل من غير أن يسلم لهم جدول النهاية: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129].

ثم يقرأ قارئ القرآن بعد ذلك: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُ﴾ [الأعراف: 137]. وفسر الطبري تمام الكلمة هنا بوفاء وعد الله لبني إسرائيل من التمكين في الأرض والنصر على عدوهم فرعون.

ما بين قولهم: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، وقول الله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ...بِمَا صَبَرُوا۟﴾، هو المسافة التي لا تراها اللقطة.

وهنا يتغير معنى الصبر. لا يعود مجرد تحمل ساكن لشيء لا نفهمه؛ بل يصبح عبوديةً داخل مسار لم يُطلب من العبد أن يملك آخره. بنو إسرائيل لم يكونوا في الآية 129 واقفين عند نهاية القصة، ومع ذلك كان عليهم عمل الساعة: استعانة، وصبر، ثم — إن تغير الموقع — مسؤولية جديدة: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

هذه الجملة تمنع قراءة المسار من أن تتحول إلى حكاية مريحة عن انتقال المظلوم إلى الراحة. فالتمكين نفسه يفتح سؤال العمل. الذي كان يتعبد بالصبر في موضع قد يتعبد بالعدل والشكر وحسن الحمل في موضع آخر. تتغير صورة الامتحان، ولا يخرج العبد من العبودية.

ومن هنا تأتي السكينة الخاصة بهذا القسم: أن يستطيع القلب أن يقول عن مرحلة ما: «هذا ما أراه الآن»، من غير أن يضيف: «وهذا كل ما يمكن أن يكون». أن يشعر بضغط المنتصف، لكنه لا يمنح

المنتصف سلطة النهاية. وأن يشكر لله نعمة القرآن؛ فقد أراه في قصص السابقين من أول الطريق وآخره ما لم يكن أهل الطريق يرونه وهم يمشون فيه.

هذا هو ما تحمله القصة إلى حاضرنا: لا غيب مستقبلنا، بل معرفة قدر ما نرى. العين ترى موضعًا من الطريق، والوحي يوسّع القلب بطرقٍ كشف الله بداياتها ونهاياتها، فيتعلم أن يحسن المشي في موضعه من غير ادعاء امتلاك آخر الطريق.

2-4 تتبدل المواقع ويبقى الميزان

إذا طالت حال على الناس، أوشكت أن تتحول في نفوسهم من حالٍ عارضة إلى هويةٍ مستقرة. من طال علوه قد يتعامل مع القوة كأنها جزء من تعريفه، ومن طال ضعفه قد يظن أن الضعف هو الحد الذي لا يتجاوزه. لذلك لا يكتفي القرآن بأن يخبرنا أن القوة تزول؛ بل يعرض الجماعة نفسها في أكثر من موقع، ثم يبقي فوق المواقع كلها ميزانًا لا يتبدل بتبدلها.

في سورة الإسراء يأتي الخبر عن بني إسرائيل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 4]، ثم يذكر تسليط أصحاب البأس عليهم: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: 5].

ثم، بعد أن انتقلت القوة من أيديهم، يقول الله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: 6]. فسر الطبري الكرة هنا بإدالة بني إسرائيل على من سلط عليهم، وذكر اختلاف المفسرين في تعيين تفاصيل ذلك تاريخيًا. ولا نحتاج هنا إلى حسم ما لم يحتجه المعنى الذي نقرأه: الآية نفسها تعرض انتقالًا حقيقيًا في الموقع؛ بعد الإدالة عليهم جاءت لهم كرة، وبعد النقص جاءت زيادة في الأموال والبنين والعدد.

لو كانت القوة هي الميزان، لكان ينبغي أن يتغير الحكم كلما تغير حاملها. لكن الآية التالية تقطع الطريق على هذا الوهم: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7].

ما الذي بقي ثابتًا بينما تبدلت المواقع؟ لم يبق العدد، ولا الغلبة، ولا مقدار المال، ولا أمن الديار. بقيت المسؤولية.

وهذه نقلة مهمة في قراءة حركة الأيام. فالمؤمن لا يتعلم فقط أن القوة لا تثبت الحق — وقد مضى ذلك — بل يتعلم أن الموقع نفسه متغير، بينما التكليف الأخلاقي والتعبدي لا يستمد قيمته من الموقع. حين كنت ضعيفًا لم يكن ضعفك ترخيصًا بالباطل، وحين صرت قويًا لا تصبح قوتك تزكيةً لكل فعلك. تتبدل الأدوات التي في يدك، لكنك لا تخرج من قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

ولهذا يجيء في ختام المقطع خطاب لا يسمح بتحويل الكرة إلى حصانة: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: 8]. في سياقه هو خطاب لبني إسرائيل مرتبط بما سماه الوحي من فساد وعقوبة، وليس جدولًا دوريًا لكل أمة. لكن معناه داخل القصة شديد الوضوح: العودة إلى القوة لا تلغي إمكان العودة إلى المؤاخذة إذا عاد سببها الذي أخبر الله به في ذلك السياق.

وعندئذ لا يبدو التاريخ صفًا من هويات جامدة: هؤلاء أقوياء دائمًا، وأولئك ضعفاء دائمًا. الموقع يتبدل، وقد تعود الكرة بعد انكسار، فلا يعود للقوة أن تتنكر في صورة فضيلة أخلاقية، ولا للضعف أن يتنكر في صورة قدر أبدي.

لكن القرآن لا يكتفي هنا بتحرير القلب من عبادة الموقع. فإذا كانت القوة تنتقل، وإذا كانت الكرة قد تعود بعد انكسار، بقي سؤال أعمق: ماذا يصنع المؤمن بالقوة حين تصير في يده؟ ليس كافيًا أن يعرف أنها لا تزكيه، لا بد أن يعرف ما الذي يريده الله منها.

وهنا يفتح القرآن مشهدًا آخر، لا يبدأ من قومٍ عاد إليهم السلطان، بل من مؤمنين أُخرجوا من ديارهم وظُلموا حتى أُذن لهم في القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39]. ثم يصفهم في الآية التالية: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: 40]. في أول المقطع هم في موضع المظلوم الذي أُخرج من بيته، لا في موضع المُمكَّن الذي استقر له الأمر.

وفي آية الدفع يكشف القرآن وجهًا إيجابيًا للقوة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: 40]. بالقدرة يُمنع استيلاء يفضي إلى هدم مواضع العبادة وطمس ذكر الله. ووسّع الطبري معنى الدفع بذكر كف المشركين بالمسلمين ومنع

التظالم بصور أخرى. فالتدافع هنا له وظيفته التي يسميها السياق، وهو غير «التداول» الذي يصف تغير المواقع.

ثم لا ينتهي المقطع عند الإذن للمظلوم، ولا عند دفع العدوان، ولا حتى عند الوعد بالنصر: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]. تنتقل الآية التالية مباشرة إلى ما بعد التمكين: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]. والطبري يجعل الخطاب في أصله لأصحاب رسول الله ﷺ الذين أُذن لهم بالقتال، ويفسر تمكينهم بتوطينهم في البلاد وغلبتهم على عدوهم؛ ثم يصف ما يكون منهم عند ذلك من طاعة الله وإقامة شعائره والدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر.

وهنا تجيب الحج 41 عن السؤال الذي فتحته كلمة موسى قبل قليل: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129]. لم يترك القرآن معنى التمكين فراغًا يملؤه شعور المنتصر بنفسه. أعطاه مضمونًا: صلاة تقيم الصلة بالله، وزكاة تخرج حق المال من اليد التي اتسعت لها القدرة، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يحولان القوة من امتلاكٍ للموقع إلى مسؤوليةٍ عن الإصلاح.

وهكذا يصبح تغير الموقع انتقالًا في مساحة التكليف، لا مجرد انتقال من ضعف إلى قوة. في زمن الظلم عبوديةٌ تناسبه: ثبات وصبر ودفع مشروع إذا أُذن به. فإذا جاءت القدرة اتسعت الأمانة؛ وصارت القوة التي كانت أمنيةً في زمن القهر ميدانًا جديدًا للامتحان.

ويزيد القرآن هذا المعنى وضوحًا في وعدٍ صريح للذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: 55].

ولا يقف وعد النور 55 عند الاستخلاف والتمكين والأمن؛ يضع في قلبها الغاية: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾. وفسر الطبري الاستخلاف بإيراث المؤمنين الأرض، والتمكين بتوطئة الدين، وخاتمة الآية بإخلاص العبادة. فالقوة في هذا الوعد مجال أوسع لعبودية الله، ضمن الشروط والأوصاف التي ذكرها النص.

والفرح بالقوة حين تأتي فرحٌ مشروع إذا عاد بها القلب إلى وظيفتها. يفرح المؤمن بنصر الله وبالنجاة من الظلم وباتساع القدرة على الخير؛ ثم يسأل السؤال الذي يحفظ الفرح نقيًّا: ماذا أُقيم بهذه القوة؟ أي حق صار يمكن أداؤه؟ وأي خير اتسعت اليد لخدمته؟

حين تصل الدعوة إلى موضع التأثير

وقد يعيش القارئ هذه النقلة في صورة أصغر من «تمكين دولة» وأقرب إلى يومه: دعوةٌ كانت محاصرة في دائرة ضيقة ثم صار لها منبر، أو مؤسسةٌ تعليمية صارت لها موارد وطلاب، أو عالمٌ كان لا يسمعه إلا قليل فصار لكلمته أثر واسع، أو جماعة من المسلمين صار لها قدرة على القرار بعد أن كانت تطلب مجرد البقاء. هذه كلها صور تتغير فيها مساحة الفعل، ومعها يتغير نوع الامتحان.

في زمن الضعف كان السؤال: هل نصبر ونثبت ونحسن السبب؟ فإذا اتسعت اليد صار السؤال: ماذا نفعل بما اتسع؟ هنا تخرج الحج 41 من إطارها التاريخي إلى ميزانها المأذون: العبادة لا تتقاعد عند القدرة. كل مساحة جديدة تستطيع بها أن تقيم حقًا، أو تؤدي مالًا في موضعه، أو تأمر بمعروف، أو تمنع منكرًا على وجه مشروع، هي زيادة في الأمانة قبل أن تكون زيادة في المكانة.

والدعوة الصادقة لا تقيس نصرها فقط بمقدار ما صار لها من حضور. قد تتسع المؤسسة ويضيق العدل، أو يكثر الأنصار ويضعف الصدق، أو يعلو الاسم وتبهت الصلاة في القلب؛ وهنا يكون بعض ما كبر في الخارج قد كشف امتحانًا أكبر في الداخل. الإسلام أكبر من مؤسستنا، والغاية أن يُعبد الله، لا أن يصبح اسمنا هو الخبر.

بهذا يخرج القلب من أسر الموقع في حالتيه. الضعف لا يصبح تعريفًا نهائيًا له، والقوة لا تصبح غايةً تستغرقه. تتبدل الأيام، وتتبدل معها مساحة الفعل، ويبقى العبد مأمورًا أن يعرف عبودية الموضع الذي أقامه الله فيه.

ثم تأتي خاتمة الحج 41 كأنها تعيد القوة كلها إلى حجمها بعد أن بيّنت وظيفتها: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾. المُمكَّن مسؤول عما يعمل، لكنه لا يملك آخر الطريق. اتسعت يده، ولم تتسع حتى تملك المآل. صار أقدر على الفعل، لا أقدر على أن يكتب نهاية الأمور من عنده.

وهكذا يسلم القرآن خيط التمكين إلى كلمة أوسع: العاقبة.

3-4 العاقبة: الكلمة التي تفتح آخر الزمن

هناك فرق بين أن تقول عن شيء: «وقع»، وأن تقول: «هذه عاقبته». الأولى تصف موضعًا في الزمن، والثانية لا تظهر إلا إذا اتسع النظر إلى ما صار إليه الأمر.

ولهذا تحمل كلمة «العاقبة» في القرآن قوة خاصة في هذا الكتاب. إنها لا تمحو الحاضر، وإنما تمنع الحاضر من أن يحتكر معنى القصة. وما دامت العاقبة هي آخر الأمر ومآله، فإن من يقف في الوسط لا يملك أن يجعل وسط الطريق خاتمته من عنده.

بعد أن قص الله خبر نوح عليه السلام، لم يترك القصة في الماضي، بل قال لنبيه ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49].

تأمل الحركة في الآية: خبر غائب يكشفه الوحي، ثم أمر حاضر بالصبر، ثم عاقبة توسع أفق هذا الصبر. القصة لم تعط النبي ﷺ تفاصيل ما سيجري له على صورة قصة نوح، ولم تجعل الوقائع متطابقة؛ لكنها جعلت المآل الذي كشفه الله في الماضي زادًا لعبودية الحاضر.

والطبري يفسر قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بأن الخير من عواقب الأمور لمن اتقى الله، ثم يجمع في سياق نوح بين ما وقع له من النجاة والظفر في الدنيا وما أعد له في الآخرة. وهذا مهم؛ لأن الكلمة من داخل تفسيرها المبكر أوسع من صورة واحدة للنصر.

وفي قصة موسى يقول: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]. هنا تأتي «العاقبة» في قصة رأى بنو إسرائيل فيها بعد ذلك نجاةً ووراثةً وتمكينًا؛ أي إن العاقبة قد تتجسد في مآل دنيوي يكشفه النص نفسه.

لكن القرآن يمنع القارئ من اختزال الكلمة في هذا الوجه. بعد قصة قارون يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]. هنا دخلت الدار الآخرة في صلب السياق نفسه، فلا يمكن أن تترجم «العاقبة للمتقين» في كل موضع إلى تمكين سياسي أو نجاة دنيوية يراها صاحبها بعينه.

وسعة «العاقبة» رحمة بالقلب. فهي لا تحصر الرجاء في أن يشاهد المؤمن انقلاب موازين الدنيا قبل موته؛ تفتح له ما كشفه الله من نجاةٍ ونصر في قصص، ومن تمام فوز في الدار الآخرة. عندها لا يعود عمر الفرد هو المقياس الوحيد الذي يطالب به الوعد.

وما الذي يبقى للقلب إذن؟ لا خريطة النهاية، بل أفقٌ يتسع لها.

العاقبة لا تعطيه ساعة على التقويم، ولا صورةً تفصيليةً لمآل حدث لم يكشفه الله؛ لكنها تنزع من «الآن» حق أن يكون المحكمة الأخيرة. ولهذا جاء في هود: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾. فوظيفة معرفة العاقبة ليست أن تعطل حركة اليد حتى يأتي آخر القصة، بل أن تجعل العبادة في الوسط ممكنة من غير اختناق.

وتجسد السنة فرقًا بالغ الدقة بين الرجاء والتنبؤ. سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟ فذكر يوم العقبة حين ردَّه أهل الطائف، وأن ملك الجبال خيّره في أن يطبق عليهم الأخشبين. فلم يحوّل ألم اللحظة إلى رغبة في إغلاق القصة عندها، وقال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا». (صحيح البخاري: 3231، وصحيح مسلم: 1795).

تأمل لفظه: «أرجو». لم يسمِّ مآلًا غيبيًا لم يخبره الله به، ولم يجعل رفض الجيل الحاضر حكمًا على كل ما يمكن أن يأتي بعده. ترك الباب لفضل الله، واتسع قلبه في أشد أيامه لأناس لم يولدوا بعد. هذا من أجمل ما تصنعه قراءة المسار بالقلب: لا تنكر مرارة اليوم، ولا تحوّل الرجاء إلى نبوءة؛ وإنما تمنع الألم من أن يختصر أمامك مستقبل الدعوة كله.

وللداعية في هذا المشهد راحةٌ لا تشبه التمني الساذج. قد يقف على باب قوم فيُرد، أو يبذل في تعليم فلا يرى الاستجابة التي ظنها، أو يخاطب جيلًا فيشعر أن المسافة بينه وبينهم تزداد. الطائف لا تعطيه وعدًا بأن هؤلاء أنفسهم سيقبلون غدًا، لكنها تمنعه من أن يجعل رفض اليوم حكمًا على كل ما يمكن أن يفتحه الله بعده.

والأجمل أن الألم لم يضيق رحمة النبي ﷺ بالناس حتى صارت غايته أن يراهم مكسورين لأنه كُسر عندهم. بقيت الغاية أكبر من جرح الداعية: «من يعبد الله وحده». فإذا صفا هذا المقصد في قلب من يدعو، صار أقدر على الصبر؛ لأنه لم يعد محتاجًا أن تنتصر نفسه داخل كل قصة حتى يظل يريد الهداية للناس.

وحين يتسع أفقه بالعاقبة، يستطيع أن يعطي كل زمن حقه: للعمل عمله، وللصبر صبره، وللشكر شكره. لا يستعجل من منتصف القصة حكمًا على آخرها، ولا يؤجل عبودية الحاضر حتى تنكشف له النهاية.

وحب النصر الدنيوي يبقى في موضعه: يفرح المؤمن بنصر الله، ويعمل له بأسبابه المشروعة، ويحب السلامة والفتح. لكن هذا الفرح يعيش داخل أفق أوسع من صورة واحدة للمآل.

وهنا تنشأ طمأنينة من نوع آخر: ليست طمأنينة من يعرف ما سيحدث غدًا، بل طمأنينة من يعرف رب الغد. ما بعد هذه اللحظة ليس خارج ملكه، وما كشفه من عواقب قصصه يكفي ليمنع يومًا واحدًا من أن يستبد بالقلب.

فالعاقبة ليست كلمة لتسكين النفس بشعار؛ إنها طريقة في وزن الزمن. تجعل البداية بداية، والوسط وسطًا، ولا تسلم للنفس حق إعلان النهاية قبل أن تأتي.

4-4 سـيروا في الأرض -ذاكرة المآلات التي لا يملكها عمر واحد-

عمر الإنسان أقصر من أن يختبر بنفسه كل صور القوة والضعف، والعلو والزوال، والخوف والنجاة. ولو لم يكن له من الذاكرة إلا ما عاشه، لبقي أسير جيله ولو كان واسع الاطلاع. قد يولد في ظل قوة فيظنها من طبيعة العالم، أو في زمن ضعف فيظنه الحد الذي لا يتجاوزه التاريخ، أو يرى عمرانًا هائلًا فيحسب أن ما بلغ هذه الدرجة لا يمكن أن يصير أثرًا بعد عين.

لذلك لا يكتفي القرآن بأن يقص. يأمر بالسير والنظر.

يقول الله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: 9].

الآية لا تعرض أطلالًا صامتة فقط. تضع أمام القارئ طبقات المشهد كلها: قوة أشد، وإثارة للأرض، وعمارة أكثر، ورسلًا جاءت بالبينات، ثم ظلمًا للنفس وعاقبةً معلومة في سياق التكذيب. وقد فسر الطبري الآية بقريش الذين يسيرون في البلاد تجارة، فينظرون إلى آثار الأمم المكذبة، وذكر أن أولئك كانوا أشد قوة وأكثر عمارة، ثم لم تمنعهم قوتهم ولا عمارتهم مما نزل بهم بعد تكذيب رسلهم.

إذن السير في الأرض ليس درسًا فقيرًا عنوانه: «كل حضارة تسقط». هذه جملة أعم من جهة وأفقر من جهة. أعم؛ لأنها قد تجعل مجرد الزوال تفسيرًا للعاقبة التي سماها النص بسببها. وأفقر؛ لأنها تحذف من

الآية الرسالة والبينات والمسؤولية والظلم. القرآن لا يدعنا نستبدل قصته بنظرية تاريخية عامة ثم نزعم أننا اعتبرنا.

إنه يعلّمنا شيئًا أدق: أن ننظر إلى مآل من كشف الله لنا سبب مآله، وأن نحمل هذا الكشف في الذاكرة. فالماضي ليس كومة حوادث؛ فيه وقائع سمى الله أصحابها، وذكر ما جاءهم، وكيف أجابوا، وما صارت إليه أمورهم. هذه ذاكرة موحى بها، لا لأنها تحيط بكل التاريخ، بل لأنها تعطينا في الجزء الذي قصه الله معنى لا تستخرجه العين من الحجر وحده.

ولهذا تتكرر في القرآن صيغ من قبيل: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: 36]. جهة النظر هنا مسماة: ليست كل نهاية بشرية عظةً من النوع نفسه، وإنما عاقبة قوم وصفهم النص بالتكذيب بعد إرسال الرسل. فالوحي لا يكتفي بأن يقول لك «انظر»، بل يعلمك إلى ماذا تنظر.

وهذا يغير إحساس القلب بالحاضر. القوة التي تملأ شاشة اليوم ليست أول قوة ملأت عيون أهل زمانها. والعمران الذي يبدو نهاية التطور ليس أول عمران عظيم وطئه البشر. والعلو الذي يشعر أصحابه أنه صار جزءًا من نظام الكون ليس أول علو عاش الناس تحته. ليس في هذا تنبؤ بمصير قوة معاصرة بعينها؛ وإنما فيه كسر لغرور الحاضر بأنه الحالة الأولى والأخيرة.

لكن ذاكرة القرآن لو كانت ذاكرة خراب وحده لأنتجت عينًا تعرف كيف ترى القبور ولا تعرف كيف ترى النعم. والقرآن يبني شيئًا أوسع.

قال الله لموسى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5]، ثم يبدأ التذكير: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم: 6].

جعل الطبري معنى ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ هنا تذكيرهم بما سلف من نعم الله عليهم، وذكر منها إنقاذهم من آل فرعون وإغراق عدوهم وما أنعم به عليهم بعد ذلك. وأورد عن ابن زيد حمل «أيام الله» على الأيام التي انتقم فيها من أهل معاصيه تحذيرًا لمن بعدهم. وفي ختام تفسير الآية جعل في تلك الأيام عبرًا ومواعظ لكل ذي صبر وشكر.

وبهذا لا تبقى الذاكرة القرآنية سجلًا لمصارع المكذبين فقط؛ فيها أيام نجاة أيضًا. فيها يوم كان البحر أمام قوم وفرعون وراءهم ثم صار الطريق في البحر. فيها يوم كان الطفل في اليم ثم صار في حضن أمه. فيها انتقالات لا تجعل المؤمن يحدق في سقوط الآخرين فقط، بل ترده إلى نعم ربه عليه وعلى عباده.

ولهذا ختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

الصبر يحتاج ذاكرة؛ لأن الشدة إذا انفردت بوعي الإنسان أوهمته أنها لم يسبقها فرج ولم يعرف المؤمنون طريقًا أطول منها. والشكر يحتاج ذاكرة؛ لأن النعمة إذا استقرت أوهمت صاحبها أنها الأصل الذي وُلد فيه ولم تُهد إليه بعد ضعف وحاجة.

من نسي أيام ضعفه وهو قوي سهل عليه البطر، ومن نسي أيام النجاة وهو خائف سهل عليه اليأس. أما ذاكرة القرآن فتعيد النعمة والشدة إلى سيرتهما مع الله: يصبر القلب وهو يتذكر، ويشكر وهو يتذكر، فلا تسكره اللحظة ولا تسحقه.

وفي السنة مشهد يكاد يكون تطبيقًا مباشرًا لهذه الذاكرة. بعد حنين، لما قسم النبي ﷺ قسمًا واعترض رجل في عدله، بلغ ذلك رسول الله ﷺ فتغير وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر». (صحيح البخاري: 3150، وصحيح مسلم: 1062).

لم يستدع النبي ﷺ قصة موسى ليعيّن لنفسه مآلًا غيبيًا جديدًا، ولا ليقول إن الواقعتين متطابقتان. استدعى من خبر أخيه النبي عبوديةً تصلح للحاضر: أوذي موسى فصبر. هكذا تصير ذاكرة الوحي قوةً في القلب؛ الماضي الذي علّمه الله لك لا يبقى وراءك، بل يدخل اللحظة التي تؤلمك ويعينك على أن تعبد الله فيها.

وهنا يصبح «المسار» عبودية فعلًا. ليس المقصود أن يجمع الإنسان معلومات تاريخية أكثر، ولا أن يتعلم أسماء الدول وتواريخ سقوطها ثم يظن أنه امتلك سنن الله. المقصود أن يخرج من ضيق عمره إلى سعة ما قصه الله، فتدخل هذه الذاكرة في خوفه ورجائه وفرحه وقراره.

حين يرى قوةً لا يستهين بها؛ لكنه لا يعبد حاضرها، فقد رأى القرآن قارون وحصونًا وأممًا أشد قوة وعمارة. وحين يرى ضعفًا لا يزينه؛ لكنه لا يجعله نهاية، فقد قرأ قومًا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ ثم قرأ بعد ذلك تمام الكلمة الحسنى عليهم بما صبروا. وحين تأتيه نعمة بعد شدة، لا يبرد فرحه باسم الزهد؛ بل يفرح ويشكر، لأن ذاكرة «أيام الله» لا تعلمه فقط أن النعمة تزول، بل تعلمه أن النعمة من الله وتستحق أن تُذكر.

ومن حمل هذه الذاكرة صار أصدق أمام الحاضر المجهول: يستفيد من المآلات التي كشفها الله، ويقف بأدب عند ما لم يكشفه. لا يحتاج أن يملك نهاية اليوم حتى ينجو قلبه من أسر اليوم.

وحين يبلغ القارئ هذا الموضع يخرج من السير في الأرض بقلب آخر: أقل انبهارًا بما استقر، أقل يأسًا مما طال، أوسع رجاءً من أن يحتاج إلى اختراع نهاية، وأشد شكرًا لأنه عرف أن في أيام الله أيام نجاة ونعمة كما فيها أيام أخذ وعبرة.

ثم تبقى الآية في آخر المشهد، وكأنها تصف العين التي تستطيع أن تحمل هذه الذاكرة من غير يأس ولا بطر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5].

القسم الخامس: ما الذي تعرفه؟ وما الذي تتعبد به في الحدث؟

انتهى بنا القسم السابق إلى جملة تردّ القوة نفسها إلى موضعها: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]. لكن بقي امتحان أدق: ماذا يصنع القلب بما عرفه؟ وأين يقف حين ينتهي علمه؟

وهنا يبلغ السؤال موضعه الأخير. ليس المطلوب قارئًا يملك قاموسًا أوسع لتسمية الحوادث: عقوبة، تمحيص، استدراج، تمكين. المطلوب عبدٌ صار أشد صدقًا في علمه، وأشد تواضعًا عند حدّه، وأسرع رجوعًا إلى ربه. يعرف ما كشفه الله فيثبته، ويعرف السبب المشهود فيعالجه، ويتوقف عما لم يعلمه؛ ثم لا يترك قلبه معلقًا بالفراغ الذي بقي، بل يعلقه بالله الذي لم يغب عنه شيء.

كان السؤال حتى هنا: ماذا تقول هذه الأيام؟ أما هنا فيصبح السؤال الأعمق: حين لا يطابق الحدث ما تحبه، وحين تستعجل ما ترجوه، وحين ينتهي علمك قبل أن ينتهي القدر: من ربك في قلبك؟

1-5 ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ — حين لا يكون ما تحبه هو ميزان الخير -

قبل الحديبية، وقبل أن نبحث في الحكمة التي خفيت، يضع القرآن أصلًا أصرح: أن حدَّ الإنسان لا يظهر فقط فيما يجهله من أسرار الأحداث؛ بل قد يظهر في ميله نفسه إلى ما يحب وينفر منه. فقد يرى القلب صورةً فيتمناها، أو يرى أخرى فيكرهها، ثم يكاد ينقل حكم شعوره من نفسه إلى حقيقة الخير والشر.

قال تعالى في سياق فرض القتال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

لم ينكر القرآن الكُره الذي تجده النفس في القتال، سمّاه كرهًا. لكنه لم يجعل هذا الشعور حاكمًا على حقيقة المآل. وبيّن الطبري أن الخطاب في سياقه يقرر أن ما يكرهه المؤمنون من القتال قد يكون خيرًا لهم، وأن ما يحبونه من تركه قد يكون شرًا، ثم ردّ علم الخير والشر إلى الله: هو يعلم وأنتم لا تعلمون.

والآية لا تقول إن كل ما نكرهه خير لنا، ولا إن كل محبوب شر؛ لكنها تهدم شيئًا أدق: دعوى أن الحب والكراهية وحدهما يكشفان حقيقة الخير والشر. أنت تعلم أنك تحب، وتعلم أنك تكره؛ وهذه معرفة صادقة بما في نفسك. لكن الشعور خبرٌ عنك، لا علمٌ محيط بما وراء الحدث.

وقد مرّ بنا في حديث خباب رضي الله عنه أن المطلوب قد يكون محبوبًا ومشروعًا، ثم يمرض القلب من جهة أخرى: يستعجل وقته. سمّى النبي ﷺ ذلك في موضعه بكلمةٍ بقيت معنا: «ولكنكم تستعجلون». فحب الفرج لا يجعل توقيته ملكًا لنا.

ثم تأتي الحديبية فتجسد طبقة ثالثة من هذا الأدب: ليست المسألة ميلًا أو استعجالًا فقط، قد تكون في الواقعة نفسها عناصر حقيقية لم تدخل علمك أصلًا. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّ﴾ [الفتح: 25]، ثم قال: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27].

كان المؤمنون يعرفون أشياء حقيقية: خرجوا يريدون البيت، ومُنعوا منه ذلك العام، وثقلت على بعض النفوس شروط الصلح. لكن الله كان يعلم ما لم يعلموا؛ ومن ذلك المؤمنون والمؤمنات في مكة الذين لم يعرفهم المسلمون. ولم يكن نقص علم الصحابة ذمًا لهم؛ كان حدًا بشريًا طبيعيًا، والعبودية أن لا يتحول هذا الحد إلى دعوى إحاطة.

وهنا تجتمع ثلاث طبقات: قد لا يكون ما تحبه هو الخير الذي تتصوره، وقد يكون المطلوب المحبوب خيرًا لكنك لا تملك توقيته، وقد تكون في الواقعة نفسها أشياء لم تدخل علمك. وفي الطبقات الثلاث تعود الكلمة إلى موضعها: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، و ﴿الٓمٓ﴾.

قول «لا أعلم» قد يكون علمًا بمقدار النفس قبل أن يكون نقصًا في المعلومات. ما كشفه الله نثبته، وما ظهر من الأسباب ندرسه، وما بقي وراء ذلك لا يترك القلب معلقًا بالفراغ؛ يرده إلى العليم. عندها لا يعود الإنسان مضطرًا إلى اختراع تفسير لكل ألم حتى يطمئن.

وهنا تتسع العبودية بدل أن تضيق: أطلب الخير، وأعمل له، وأسأل وأستشير؛ ثم إذا انتهى علمي لم ينته ربي. الحكيم حكيم وإن لم تنكشف لي حكمته، والعليم عليم وإن وقف بصري عند حدّه. وما أجهله لا يطردني من باب الله؛ قد يكون هو الموضع الذي أتعلم فيه معنى التسليم.

وقد يبلغ هذا الأدب جماعةً كاملة كما يبلغ الفرد. تبذل جماعةٌ في الدعوة أسبابًا كثيرة ثم تتعثر، أو تختار اجتهادًا تظنه أنفع ثم لا تأتي الثمرة، أو ترى بابًا يُغلق ولا تعرف لماذا. تستطيع أن تراجع قراراتها بصدق، وأن تصحح ما ثبت خطؤه، وأن تتعلم من الواقع؛ لكنها لا تملك أن تضيف بعد ذلك جملةً غيبية من عندها: «أراد الله بنا كذا» أو «هذا دليل أن الله تركنا». إذا انتهى العلم البشري بقي اسم الله: العليم. وهذا ليس فراغًا في التحليل؛ هو أدب العبودية.

2-5 ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ - السبب لا يخرجك من القدر -

إذا كان الأدب عند ما خفي أن لا نخترع علمًا، فليس الأدب عند ما ظهر أن نهرب من السبب باسم القدر. فالقرآن الذي يرد علم الغيب إلى الله هو نفسه الذي يحمل الإنسان مسؤولية ما كسب.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]. وفسر الطبري الآية بأن من مصائب الدنيا ما يكون عقوبة على ما اجترحه الناس من الآثام، مع عفو الله عن كثير. فهذا أصل قرآني لا يصح أن نمحوه خوفًا من سوء التنزيل.

وفي الوقت نفسه قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11].

المعنيان لا يتدافعان. الذنب سبب، والخطأ سبب، والتنازع سبب، وضعف الإعداد سبب إذا ثبت ذلك؛ وكل سبب من هذه الأسباب لا يعمل خارج ملك الله وقضائه. كما أن وقوع الذنب أو الخطأ بقدر الله لا يحوّله إلى صواب، ولا يعني أن الله يحبه أو يرضاه شرعًا، ولا يعفي صاحبه من التوبة والمراجعة.

ولهذا كان درس أُحد شديد الوضوح: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165]. لم يقل لهم القرآن: ما دام الأمر قدرًا فلا تنظروا في أنفسكم. بل ردهم إلى مسؤوليتهم، كما رد قلوبهم في مواضع أخرى إلى الله. فالقدر ليس ستارًا يختبئ خلفه التقصير، والأسباب ليست قوةً تنازع الله ملكه.

وهنا يحتاج القارئ إلى ميزان دقيق جدًا: آية الشورى تثبت صلةً عامة بين كسب العباد والمصائب، لكنها لا تسلّمنا مفتاحًا لتعيين الذنب الخاص وراء كل مصيبة خاصة، ولا تجعلنا قضاةً على قلوب المنكوبين. والقرآن نفسه عرض ابتلاء الأنبياء والصالحين، وكشف في بعض الوقائع وظائف ومعاني غير العقوبة. لذلك نثبت الأصل، ونتوب من الذنب الذي نعرفه، ونصلح السبب الذي ظهر، ولا نزعم في حادثة بعينها ما لم يقم عليه دليل.

حين يظهر السبب، اعمل فيه. أخطأت؟ فاستغفر وأصلح. ضعفت أداة؟ فقوِّها. وقع تنازع؟ فارجع إلى الطاعة والاجتماع. أمامك قرار؟ فاستفرغ ما تملك من علم ومشورة. هذه مساحة أمانتك، لا مساحة سيطرتك على النتيجة.

للعبد مساحة فعل حقيقية: يزرع، ويعدّ، ويختار، ويصحح. وكلما عرف السبب مكانه اشتد عمله وخف قلبه من وهم السيطرة؛ لأنه يبذل ما في يده، ثم يترك الثمرة في ملكٍ أوسع من يده.

واللافت أن آية التغابن لا تنتهي عند تقرير القدر. بعد ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لا تقول: فيعرف تفاصيل الحكمة. بل تقول: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

وهنا تبلغ المعرفة غايتها الأجمل: أن تهدي القلب. ليست القيمة في أن نصير أقدر على تسمية كل حركة في الأيام، بل أن تنتهي المعرفة الصحيحة إلى قلب أعرف بربه، وأهدأ عند حد علمه، وأسرع رجوعًا إلى الله.

قال الطبري في الآية إن من صدق بالله وعلم أن المصيبة لا تكون إلا بإذنه يوفقه الله «بالتسليم لأمره والرضا بقضائه»، وروى عن علقمة: الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيسلم ويرضى. فالعلم الذي يريده القرآن هنا لا يقف في الرأس؛ ينزل إلى موضع الاضطراب نفسه.

فإذا انتهى بحثك في السبب ولم تنته الأسئلة، لا تقف أمام فراغ. تقف أمام قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾. أنت تعرف بعض ما كان، وهو يعلم ما كان وما يكون، وما ظهر وما خفي. وحين يستقر الفرق بين العلمين، لا يصغر العقل؛ يصير عبدًا.

3-5 ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ — قلب لا تملكه الصـــدمة ولا الفوات ولا العطاء-

ربما تكون هذه الآية من أجمل مواضع الكتاب كلها؛ لأنها لا تعد المؤمن بأن المصيبة ستختفي فورًا، بل تعده بشيء يقع داخله وهو ما يزال في قلبها: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

قد يبقى الفقد فقدًا، ويبقى الجرح جرحًا، ويبقى القرار الذي فات لا يمكن استرداده. لكن القلب نفسه لا يبقى كما كان. يهديه الله إلى موضعه منه: فلا يصبح الألم اعتراضًا، ولا الندم عبادةً للماضي، ولا سؤال «لماذا؟» قطيعةً مع الرب، ولا الإيمان بالقدر عذرًا للعجز.

ثم تأتي سورة الحديد فتجمع في آيتين ما تفرقت صوره في الكتاب: المصيبة في الأرض، والمصيبة في النفس، والكتاب السابق، ثم أثر هذه المعرفة في القلب أمام طرفي الأيام: الفوات والعطاء.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 22-23].

الآية لا تريد قلبًا بلا إحساس. الحزن والفرح من إنسانية العبد، وقد نقل الطبري عن ابن عباس أن الناس يحزنون ويفرحون، ولكن المؤمن يجعل المصيبة صبرًا والخير شكرًا. المشاعر تبقى؛ الذي يهديه الوحي هو الطريق الذي تسلكه بعد أن تولد.

والسنة لا تترك هذا الميزان في مصائب الجماعة وحدها؛ بل تنقله إلى أشد الخبر خصوصية. لما كان إبراهيم ابن رسول الله ﷺ يجود بنفسه، جعلت عينا النبي ﷺ تذرفان. فلما رأى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بكاءه، قال له النبي ﷺ: «يا ابن عوف، إنها رحمة»، ثم قال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون». متفق عليه؛ البخاري (1303)، ومسلم (2315).

هذا من أنقى مشاهد عبودية الخبر الشخصي. لم يُطلب من القلب أن ينكر الفقد حتى يكون مؤمنًا، ولم تصبح الدموع اعتراضًا على القدر. بقيت الحقيقة في موضعها: مات الابن، وحزن الأب، ودمعت العين؛ لكن اللسان بقي عبدًا: «ولا نقول إلا ما يرضى ربنا». فليس ميزان القرآن والسنة أن تنطفئ مشاعرك أمام ما يتغير في أيامك، بل أن لا تتحول المشاعر إلى حاكم على ربك، ولا إلى كلمةٍ تسخطه. وهنا يتبين أن هداية القلب لا تلغي إنسانيته؛ إنها تهديها.

وفي هذا رحمةٌ بمن يحمل همًا عامًا حتى يوشك أن يستحي من ألمه الخاص. قد يكون داعيةً أو عالمًا أو صاحب مشروعٍ للأمة، ثم يصيبه فقدٌ في بيته أو مرضٌ في جسده أو جرحٌ لا يعرفه الناس. ليس مطلوبًا منه أن يتجمد لأن عنده «قضية أكبر». رسول الله ﷺ الذي حمل الرسالة كلها بكى ابنه. القلب الذي يخدم الناس يبقى قلبًا بشريًا، والعبودية لا تطلب منه قتل الرحمة؛ تطلب أن تمر الرحمة من باب الرضا بالله.

وأول موطن يظهر فيه صدق هذا التحول هو لحظة الصدمة نفسها. مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال لها: «اتقي الله واصبري». فلما عرفت أنه النبي ﷺ أتته، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى». رواه البخاري (1283)، ومسلم (926). فالصبر ليس فكرةً نستعيدها بعد أن يبرد كل شيء؛ امتحانه الأشد حين يفاجئ الألم القلب قبل أن يعيد ترتيب نفسه.

ومع ذلك فالصبر ليس موهبة يولد بها بعض الناس ويحرم منها آخرون، ولا قوةً يستقل بها العبد عن ربه. قال النبي ﷺ: «ومن يتصبر يصبره الله، ولن تعطوا عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر». رواه البخاري (6470). في اللفظ حركة من العبد ومدد من الله: يتصبر، يحمل نفسه على الصبر ويطلبه، فيصبّره الله.

وهنا تظهر هداية القلب في صورتها الإنسانية الجميلة: لا تنتظر حتى تزول الكراهية الطبيعية أو ينطفئ الحزن حتى تعبد الله. خذ ما فيك كما هو وامضِ به إليه: تحزن من غير سخط، وتألم من غير قطيعة، وتطلب الفرج من غير استعجال، وتبذل ما تستطيع من غير تأليه لقدرتك.

ولهذا تأتي السنة فترسم حركة العبد قبل النتيجة وبعدها في كلمات قليلة. قال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان». رواه مسلم (2664).

قبل وقوع الأمر: حرص، واستعانة، ورفض للعجز. وبعد أن يقع ما لا تستطيع رده: تسليم، ومنع للنفس من أن تعيش في كون بديل تصنعه «لو». ولا يمنع ذلك مراجعة الخطأ؛ فالمراجعة سبب للمستقبل، أما الحسرة التي تستعبد القلب لماضٍ لم يعد في يده فشيء آخر.

ثم يأتي حديث صهيب رضي الله عنه كأنه يجمع طرفي حركة الأيام كلها: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له». رواه مسلم (2999).

حديث صهيب يفتح بابًا واسعًا: المؤمن لا يحتاج إلى نوع واحد من الأيام حتى يبقى طريقه إلى الله مفتوحًا. السراء تستدعي الشكر، والضراء تستدعي الصبر؛ وفي كل حال يستطيع القلب أن يجد بابًا إلى ربه. الخير هنا ليس في صورة اليوم وحدها، بل فيما يصنعه الإيمان بالعبد داخلها.

وهذه حرية القلب من سلطان الأيام: لا يؤجل عبادته حتى تنتظم الدنيا على الصورة التي يحب. يعبد الله وهو يعمل، ويعبده وهو ينتظر، ويعبده وهو يحمل الصدمة، ويعبده وهو يفقد، ويعبده وهو يُعطى. تتبدل الأحوال، ويبقى الباب مفتوحًا.

الإيمان بالقدر لا يغيّر الماضي، لكنه يغيّر القلب الذي يحمله. والصبر لا يمحو الألم؛ يحفظ الطريق إلى الله مفتوحًا وسطه. والشكر لا يطفئ الفرح؛ يرده إلى المنعم. وهكذا لا تبقى تقلبات الأيام أحداثًا تمر على العبد فقط، بل تتحول إلى مواضع قرب.

والقلب الذي بلغ هذا الموضع لا يجعل سلامته من التقلب غايته الكبرى؛ يسأل الله العافية، ثم يطلب ما هو أبقى: أن يخرج من كل حال أقرب إليه. إن صُدم صبر واستعان، وإن أخطأ رجع، وإن فاته شيء سلّم، وإن أتاه خير شكر، وإن طال الطريق بقي مع ربه قبل أن يعرف آخره.

خاتمة تطبيقية: مفتاح قرآني لقراءة الخبر

هنا يخرج الميزان من الصفحات إلى اليوم نفسه. يصل خبر، تقع واقعة، تراها العين، ويسرع القلب إلى معناها، ثم تبدأ العبادة قبل أن يهدأ كل شيء. هذه الخاتمة ليست خلاصةً مدرسية بقدر ما هي امتحان لما صار من القرآن حاضرًا في طريقة تلقينا للحياة.

بعد هذه الرحلة يمكن أن نجمع الميزان في موقف يتكرر على الإنسان مرات لا يحصيها: يصل إليه خبر. وليس «الخبر» هنا ما تبثه نشرات السياسة وحدها، قد يكون رسالةً عن قريب، أو نتيجة فحص، أو قبولًا أو رفضًا، أو تغيرًا في رزق، أو خسارة مال، أو نجاحًا في عمل، أو كلامًا نُقل عن إنسان، كما قد يكون خبر حرب أو صلح أو قوة أو انهيار. في كل ذلك يدخل إلى النفس شيء وقع خارجها، ثم يبدأ القلب فورًا في صنع معناه.

والخبر قد يكون خبر دعوتك وأمتك

وقد يكون الخبر أشد التصاقًا بك لأنك طرفٌ فيه: نجاح مؤسسة دعوية تعمل معها، إغلاق بابٍ كنت تخدم من خلاله، انتشار فكرةٍ تحملها أو انحسارها، قبول الناس لعالم أو داعية تحبه، انقسامٌ داخل صف تعمل معه، نصرٌ للمسلمين يملأ قلبك فرحًا، أو ضعفٌ يؤلمك لأنك لا تراه شأنًا بعيدًا عن دينك. في هذه الأخبار لا تكون المشاعر مشكلةً يجب التخلص منها؛ المشكلة أن تتحول حرارة الانتماء إلى إعفاءٍ من ميزان القرآن.

فكلما اقترب الخبر منك ازددت حاجةً إلى الأمانات نفسها: أن تتثبّت قبل أن تتكلم، وأن تفرق بين ما وقع وما استنتجته، وأن ترى السبب الذي في يدك فتعمل فيه، وأن لا تسمي الغيب، وأن تزن جماعتك ودعوتك بالحق لا أن تزن الحق بهما. قربك من القضية يعطيك مسؤوليةً أكبر، لا علمًا أكبر مما تملك.

يبني القرآن في قارئ الخبر أربع أمانات متداخلة: صدقًا في ثبوت الخبر، وتواضعًا في مقدار العلم، وعدلًا في وزن الحب والكراهية، وعبوديةً فيما يطلبه الله بعد ذلك. فما ثبت لا يُزاد عليه بظن، وما ظهر من سبب يُعمل فيه، وما بقي غيبًا يُرد إلى العليم، ثم يتحرك القلب بما يليق بالحال.

قبل أن تزن الخبر: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾

أول ما يحرسه القرآن ليس تفسير الخبر، بل صدقه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]. وفسر الطبري

«فتبينوا» بمعنى: أمهلوا حتى تعرفوا صحة الخبر ولا تعجلوا بقبوله، وذكر أن قراءة «فتثبتوا» تقاربها في المعنى. فالخبر الذي لم يثبت لا يجوز أن يُمنح في القلب آثار الخبر الثابت، فضلًا عن أن يُبنى عليه حكم أو أذى أو قرار.

وهذا الأدب لا يخص الأخبار العامة. قد ينقل إليك أحدهم كلامًا عن قريب أو زميل، فتغضب قبل أن تعرف هل قاله. وقد تصلك رسالة مبتورة فتقيم عليها خصومة كاملة. وقد ترى رقمًا أو عنوانًا في خبر عام فتتداوله قبل أن تعرف أصله. هنا تكون عبودية التبين سابقةً لعبودية الصبر أو الغضب أو القرار؛ لأنك لا تزال لا تعلم هل وقع ما ستتحرك له أصلًا. ولهذا جاء في مقدمة صحيح مسلم، في «باب النهي عن الحديث بكل ما سمع»: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدّث بكل ما سمع». ليس كل ما يصل إلى أذنك أمانةً يجب أن تنقلها إلى أذن غيرك.

وبعد أن يثبت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾

قد يكون أصل الخبر صحيحًا، ثم يبدأ الخطأ بعده. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36]. ورجح الطبري في معناها النهي عن القول في الناس بما لا علم للإنسان به، وذكر عن قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم. وما أشد حاجة قارئ الخبر إلى هذه المراتب الثلاث: ماذا رأيت؟ ماذا سمعت؟ ماذا علمت؟

قد يثبت عندك أن إنسانًا لم يرد رسالتك، ولا يثبت بذلك أنه احتقرك. وقد يثبت فحصٌ مرضًا، ولا يثبت أنه نهاية مستقبلك، ولا أنه علامة سخطٍ من الله عليك، ولا أنك عرفت حكمته التفصيلية في هذا البلاء. وقد يثبت رفضٌ لوظيفة أو مشروع، ولا يثبت أن قيمتك سقطت أو أن كل أبواب الرزق أغلقت. وقد تثبت خسارة مالية، ولا تثبت أنها عقوبة بعينها. وفي الشأن العام قد تثبت هزيمة أو غلبة أو اتفاق أو تفوق اقتصادي، ولا يثبت من ذلك وحده الحق والرضا والعاقبة. كثير من استبداد الخبر يبدأ حين ينتقل القلب من «ما وقع» إلى «ما يعنيه» من غير جسر من علم.

لا تعط الخبر أكثر مما يدل عليه

هذا السؤال صحب الكتاب من أوله: ما الذي تضيفه النفس فوق حقيقة الخبر؟ قد يكون الوصف صحيحًا ثم تلبسه النفس حكمًا أوسع: العدد يصبح ضمانًا، والمال قيمةً للإنسان، والرفض إذلالًا، والمرض هلاكًا، والفقد علامة ترك، والانتصار شهادة صلاح. والميزان يعيد كل وصف إلى بابه حتى لا يستولي على ما وراءه.

قراءة الخبر بميزان القرآن تبدأ بصدقٍ لا يجامل المشاعر: إذا مات قريب فقد مات، وإذا ضاع مال فقد ضاع، وإذا أصيب جيش بهزيمة فهي هزيمة، وإذا أخطأ إنسان فعليه مسؤولية خطئه. ثم يبدأ عمل الإيمان: أن تبقى هذه الحقائق في حدودها، فلا يتحول الموت إلى حكم بضياع العمل، ولا الهزيمة إلى بطلان الحق، ولا النجاح إلى شهادة بالرضا، ولا المرض إلى ظن بأن الله أهمل عبده.

إذا ظهر الســـبب، فله عمله؛ وإذا خفيت الحكمة، فلها حدها

في بعض الأخبار لا يطلب منك التأمل وحده، بل يضع في يدك تكليفًا. نتيجة الفحص قد تطلب علاجًا. خطأ منك قد يطلب اعتذارًا وتوبةً وإصلاحًا. خسارة بسبب قرار سيئ قد تطلب مراجعة السبب. خبر خطر قد يطلب احتياطًا وإعدادًا. والقرآن الذي يعلّم القلب التسليم هو نفسه الذي حاسب في أُحد على التنازع والعصيان، وأمر بالأسباب والإعداد. فلا تجعل قولك «هذا قدر» وسيلة للهروب مما جعله الله في استطاعتك.

لكن إصلاح السبب لا يمنحك علم الحكمة الإلهية التفصيلية وراء كل واقعة. قد تعرف كيف وقع شيء، ولا تعرف لماذا قدّره الله بهذه الصورة الخاصة في مجموع حكمته. عند هذا الحد يعود أدب القسم الخامس: ما كشفه الله نثبته، وما ظهر من السبب نعمل فيه، وما بقي غيبًا لا نختلق له اسمًا. وهذا الفرق مهم في الخبر الشخصي كما هو في العام؛ فلا تقل لمبتلى: هذه المصيبة لأنك فعلت كذا، ولا تقل لنفسك: منعني الله هذا لأجل كذا، إلا حيث قام علم صحيح يجيز لك هذا التعيين.

اجعل الحب والكراهية في قدرهما

قد يكون الخبر ثابتًا، وقد تكون كل تفاصيله التي بين يديك صحيحة، ثم يبقى قلبك نفسه طرفًا يحتاج إلى ميزان. لهذا سبقت في القسم السابق آية: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 216]. الخبر الذي يسرّك لا يتحول بمجرد السرور إلى شهادة أن كل ما فيه خير، والخبر الذي يوجعك لا يصير بمجرد الوجع دليلًا أن كل ما وراءه شر. الشعور صادق بوصفه شعورًا، لكنه ليس علمًا محيطًا بالعاقبة.

وهنا يصبح الميزان شخصيًا جدًا. قد تحب وظيفةً بعينها، أو زواجًا، أو سفرًا، أو مشروعًا، أو نتيجةً لقرار، وتدعو الله بها، وتأخذ بأسبابها، ثم يأتيك خبر على غير ما تريد. لا يطلب منك القرآن أن تتظاهر بأنك لم تكن تريدها، لكنه يحررك من أن تجعل إرادتك ميزان الخير عند الله. وفي الخبر العام كذلك قد

تحب نتيجةً لأنها توافق ما ترجوه لأهل الحق، لكن حبك لها لا يعطيك علم موعدها ولا تفاصيل الطريق إليها.

ومن أرفع ما يحبه المؤمن أن يرى الإسلام عزيزًا، والهدى منتشرًا، والمسلمين في أمنٍ وقوةٍ وعدل، وأن يرى دعوته تؤتي ثمرتها والناس يدخلون في طاعة الله. هذا الحب ليس شيئًا يعتذر عنه القلب؛ هو من الخير إذا انضبط بالوحي. لكن شرف المحبوب لا يحول رغبتنا في صورته وتوقيته إلى علم. قد يكون مقصدك صحيحًا، وتبقى بعض طرائقك واجتهاداتك وتقديراتك بشريةً قابلةً للمراجعة.

وهنا تظهر عبودية شديدة الخفاء: أن تفرق بين «انتصار الإسلام» و«انتصار الصورة التي رسمتها أنا لانتصاره». قد يكون الحق ظاهرًا في بابٍ لم تنتبه له، وقد يأتي نفعٌ على يد من لم يكن في دائرتك، وقد يخسر مشروعك جولةً ويبقى الإسلام أكبر من مشروعك، وقد ينجح مشروعك ولا تكون كل وسائله صوابًا. من أحب الدين حقًا أحب أن يظهر الحق ولو لم تُكتب تحته أسماؤنا.

إذا رأيت فضلًا عند غيرك فاسأل صاحب الفضل

وقد يصل إليك خبر لا يحمل في ذاته مصيبةً وقعت عليك، لكنه يفتح بابًا آخر لامتحان القلب: أُعطي غيرك مالًا، أو منزلةً، أو نجاحًا، أو أهلًا، أو فرصةً كنت تمناها لنفسك. هنا لا يكون السؤال الأول: ما سر ما أُعطي؟ بل: ماذا صنع بك علمك بما في يده؟ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: 32].

فالقرآن لا يترك القلب في أسر المقارنة، ولا يأمره أن يطفئ الرغبة أو يترك السعي؛ بل يحوّل جهة الطلب: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ﴾. ما عند الناس خبر عن قسمةٍ وقعت لهم، لا حكمٌ على قيمتك ولا على مقدار ما ينبغي أن يكون لك. ولك أن تطلب، وتدعو، وتعمل، وتنافس في الخير؛ لكن لا تجعل ما في يد غيرك مرآةً لا ترى نفسك إلا فيها، ولا تجعل التفضيل الدنيوي شهادةً على الرضا أو المنزلة عند الله. وهنا يتحول الخبر من باب للحسد والمقارنة إلى باب افتقار: رأيت فضلًا، فسألت صاحب الفضل.

الرغبة ليست علمًا بأن المزيد خير

ويذهب القرآن بالقلب خطوةً أبعد؛ فليس كل بسطٍ يتمناه الإنسان خيرًا لمجرد أنه بسط. قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27]. فالآية تكسر معادلةً راسخة في النفس: «المزيد خيرٌ بالضرورة». وتكشف أن البسط لو وقع للعباد على الإطلاق لكان بابًا للبغي، وأن تنزيل الرزق بقدر جارٍ تحت خبرة الله وبصره بعباده.

لكن هذه الآية نفسها لا تبيح لنا أن نقف عند فقير بعينه فنقول: أُفقر لأن الغنى كان سيفسده، أو عند من مُنع شيئًا فنزعم أن هذا هو وجه الحكمة الخاصة في منعه؛ فهذا تعيين لم يسمّه الله. الذي نعلمه هو الأصل الذي كشفه الوحي، ونقف في الشخص المعين عند حد علمنا. فإذا رأيت زيادةً عند غيرك أو نقصًا عندك، فلا تجعل الزيادة دليل رضا، ولا المنع دليل سخط، ولا رغبتك في المزيد علمًا بأنه كان سيكون خيرًا لك. اسأل الله من فضله، وخذ بالأسباب، وأصلح ما تستطيع؛ ثم أبقِ الرغبة رغبةً لا علمًا، والقسمةَ واقعةً لا حكمًا على ربك ولا على عباده.

ضع الخبر في زمنه: اللحظة ليست كل المسار

والخبر بطبيعته ابنُ لحظة؛ يقول ماذا حدث الآن. أما القرآن فيعلمك أن «الآن» قد يكون أول القصة أو وسطها، وأن العاقبة لا يملكها من يقف في المنتصف. خبر النجاح يُفرح ويُستثمر من غير أن يتحول إلى عهد بالبقاء، وخبر الفشل يُراجع ويُعالج من غير أن يصير تعريفًا للمستقبل. وفي شأنك الخاص كذلك: اليوم الشديد يومٌ من أيامك، لا اسمٌ للسنوات التي لم تأت بعد.

وسعة هذا الميزان أن تعرف حد الحاضر. تعمل لليوم بجد، وتترك الغد لعلم الله، وتبقي باب الرجاء مفتوحًا من غير أن تملأه بنهاية من صنعك. بذلك لا يصير الأمل إنكارًا للواقع، ولا يصير الواقع سجنًا للأمل.

وفي العمل للدين خصوصًا، قد يختلط عمر المشروع بعمر الرسالة في القلب. تقوم مؤسسة فتظن أن بقاء الخير متعلق ببقائها، أو تتراجع جماعة فتشعر أن الدعوة نفسها تراجعت إلى الأبد، أو ينتشر خطاب فتراه خاتمة الطريق. لكن الإسلام لم يبدأ بمشروعنا، ولا ينتهي بانتهائه. ما بين أيدينا موضع أمانة في زمن طويل لا نملك آخره؛ نخدمه بجد، ونحزن لتقصيرنا، ونفرح بثمرته، ثم لا نجعل تاريخنا الصغير هو تاريخ دين الله كله.

وآخر قراءة الخبر: ما عبودية هذا الخبر؟

إذا ثبت الخبر وعرفت قدر دلالته وفصلت السبب المشهود عن الحكمة الغيبية، بقي السؤال الذي يرد العلم كله إلى غايته: ماذا يطلب الله مني الآن؟ قد يكون المطلوب توبةً وإصلاحًا، أو صبرًا واسترجاعًا، أو شكرًا، أو أخذًا بالأسباب مع التوكل، أو حمدًا وتسبيحًا واستغفارًا. وقد يجتمع في الخبر الواحد أكثر من باب، فيتحول فهمه من معرفةٍ باردة إلى عبودية.

ولهذا فإن المفتاح القرآني لا يسأل فقط: «ما تفسير ما حدث؟» بل يعيد ترتيب الأسئلة كلها في القلب: هل ثبت أصل الخبر؟ ماذا أعلم منه حقًا؟ ماذا أضفت أنا من ظن أو خوف أو رغبة؟ ما السبب الذي أستطيع إصلاحه أو العمل فيه؟ ما الذي بقي من علم الله فلا أتجاوزه؟ وأين موضع هذا اليوم من مسار لا أحيط بآخره؟ ثم: ما حق الله عليّ الآن؟ هذه الأسئلة لا تمنحك سر القدر، بل تمنع الخبر من أن يأخذ في قلبك منزلةً لم يعطها الله له.

وعند هذا الموضع يصبح «مفتاح قراءة الخبر» عبادةً يومية. الهاتف الذي يحمل أخبار العالم يحمل أخبار بيتك ورزقك وصحتك وعلاقاتك أيضًا. وكل خبر يمر من أبواب متتابعة: صدق قبل الحكم، وعلم بقدر الدليل، وعمل في السبب، وتواضع أمام الغيب، وقلب يرد الحب والكراهية والمقارنة إلى حدودها، ثم عبودية تناسب ما جاء به اليوم. وحين تجتمع هذه الأبواب لا يعود الخبر مالكًا للقلب، يصير مادةً لصدقٍ وعملٍ وقرب.

وحين يكون الخبر عن جماعتك أو دعوتك أو أمتك، لا تقل حرارة العبادة بل تزيد. قد تحتاج إلى توبةٍ جماعية من خطأ، أو شكرٍ على فتح، أو صبرٍ على تضييق، أو إعدادٍ أقوى، أو قبول حقيقةٍ موجعة، أو ترك خصومةٍ داخلية أذهبت الريح. وقد يكون حق الله عليك أن تفرح لخيرٍ جاء على يد غيرك. فالغاية ليست أن تخرج جماعتك من كل خبر رابحةً في أعين الناس، الغاية أن تخرج أنت وهي أصدق عبوديةً لله.

وفي سيرة الصحابة مشهد يكاد يجمع هذا المفتاح كله في خبر واحد: وفاة رسول الله ﷺ. كان الخبر أثقل من أن تستوعبه بعض النفوس في اللحظة الأولى، حتى قام عمر رضي الله عنه ينفي موته. فجاء أبو بكر رضي الله عنه، فدخل على النبي ﷺ وتحقق من وفاته، ثم خرج إلى الناس. لم يعالج الصدمة بإنكار الحقيقة، ولم يجعل الحقيقة تهدم ما وراءها، بل قال: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت». رواه البخاري (3667-3668).

ثم أعاد أعظم خبر أصاب الجماعة إلى ميزان الوحي نفسه، فتلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]، وتلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ

ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]. ووصفت عائشة رضي الله عنها أثر ذلك بأن أبا بكر بصّر الناس الهدى وعرّفهم الحق الذي عليهم (صحيح البخاري: 3669-3670).

تأمل ترتيب القراءة هنا. ثبت الخبر على قسوته، وبقي الحزن إنسانيًا، ثم رُدّ الجميع إلى الحقيقة الأثبت: الرسول ﷺ يموت، والرسالة باقية، والرب حي لا يموت، والعبودية مستمرة. لم يحتج أبو بكر إلى تخفيف الحقيقة حتى يثبت القلوب؛ احتاج أن يضعها في ميزان الوحي. وهذا من أصفى ما يفسر سؤال الكتاب: ما الذي تعبده في الحدث؟

وبعد أن رأينا كيف يعيد الوحي وزن خبر الفقد حين يبلغ أقصاه، يبقى الطرف الآخر من الأيام: ماذا يفعل القلب حين يأتي الخبر الذي كان يرجوه، ويجيء النصر والفتح؟

مسك الختام: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ — حين يبلغ المشهد تمامه

وبقي مشهد أخير؛ لأن القلب لا يُمتحن فقط حين يفقد وينتظر. له امتحان آخر حين يأتيه ما كان يرجوه، وتفتح أمامه الأبواب، ويصير النصر خبرًا بعد أن كان دعاءً.

فكيف يستقبل القرآن لحظة الإجابة؟ ماذا يصنع بالقلب حين يأتي النصر منظورًا، ويجيء الفتح، وترى العين الناس يدخلون في دين الله أفواجًا؟ هنا لا يحتاج القلب إلى رجاء الغائب؛ يحتاج أن يعرف كيف يعبد الله في حضور النعمة.

وهذه السورة تمس قلب الداعية مسًّا خاصًا؛ لأنها تعرض ما يكاد يكون صورة أمنيته الكبرى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾. سنوات الدعوة، وثقل التكذيب، وأذى الطريق، وانتظار الثمرة؛ ثم ترى العين الناس يدخلون. لو كان في الرحلة موضعٌ يوشك فيه العامل أن يقول: الآن انتهى الامتحان، فهو هذا الموضع.

لكن القرآن لا يسلّم لحظة الفتح إلى نشوة الإنجاز وحدها. حين تصير الأمنية خبرًا، يرد القلب إلى ربه: ﴿حمٓ﴾. كأن أعظم حماية للداعية عند نجاح دعوته أن لا ينسى من كان يدعوه أصلًا: لم يكن يدعو الناس إلى نفسه، بل إلى الله؛ فإذا جاءوا لم يملكهم، وإذا كثروا لم يصبح هو أكبر، وإذا ظهر الأثر لم تسقط حاجته إلى المغفرة.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: 1-3].

الثمرة هنا أمام العين: نصر، وفتح، وأفواج. وقد تكون هذه من أخطر ساعات القلب؛ لأن النتيجة التي طال انتظارها تستطيع أن تملأ في النفس حتى تنسب الفضل إلى ذاتها: لقد نجحنا، لقد اكتملت قوتنا، لقد وصلنا.

لكن أول كلمة ترد المؤمن من المشهد إلى مصدره كامنة في الإضافة نفسها: ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾. ثم تأتي العبودية لا على هامش الفتح بل في قلب استقباله: ﴿حمٓ﴾.

سبّح، فيصفو القلب من دعوى الكمال، فالكمال لله. واحمد، فيرجع الفضل إلى المنعم، فالنعمة منه. واستغفر، فيبقى العبد في ذروة النجاح فقيرًا إلى مغفرة ربه. هكذا لا يقطع الفتح طريق العبودية، يفتحه على صورة أعمق.

وهنا يلتقي مشهد النصر بما سبق في وصف أهل التمكين. قال الله في وصف أهل التمكين: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]. فالقدرة إذا جاءت لا تعطي صاحبها إجازةً من العبودية، بل توسع ميدانها. وسورة النصر تضيف حركة القلب عند تمام الفتح: تسبيح، حمد، استغفار.

في الضعف يستعين العبد ويصبر، وفي التمكين يقيم ويؤتي ويأمر وينهى، وعند ظهور النصر يسبح ويحمد ويستغفر. هذه ليست عبادات متناثرة؛ إنها صورة عبدٍ تتغير مواقع أيامه ولا تتغير حقيقته مع الله.

وقد جعل النبي ﷺ هذا الأمر القرآني حركةً في الصلاة. قالت عائشة رضي الله عنها: كان يكثر في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»، يتأول القرآن. رواه البخاري (4968)، ومسلم (484). فصار الفتح في الخارج ركوعًا وسجودًا في الداخل؛ وصارت زيادة الظهور بين الناس زيادةً في الانكسار بين يدي الله.

ثم يأتي فهم ابن عباس رضي الله عنهما ليمنح السورة عمقًا آخر. لما سئل عنها قال: هي أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله إياه، وأقره عمر رضي الله عنه (صحيح البخاري: 4970). فالسورة التي تضع أمام العين تمام النصر تفتح في الوقت نفسه باب الرحيل من الدنيا.

وهنا يكتمل المشهد على نحو يكاد يجمع الدنيا كلها في لحظة: نصر يجيء، وفتح يظهر، وأفواج تدخل، ورسول الله ﷺ يسبح ويستغفر، وفي قلب تمام النصر تفتح السورة باب الرحيل من الدنيا. لا شيء من النجاح يحول الطريق إلى دار إقامة.

كم يتضاءل عند هذا المشهد كل خطاب يجعل غاية الإيمان أن تصبح الأيام «لنا». المؤمن يفرح بنصر الله، والقرآن يأمر بأسباب القوة ويبين وظيفة التمكين؛ لكنه لا يسمح للنصر أن يصير خاتمة الإنسان. بعد الفتح يبقى رب، ويبقى عبد، ويبقى استغفار، ويبقى لقاء.

وقد تكون لحظة الإجابة أخفى على القلب من لحظة الهزيمة. في الضعف تظهر الحاجة بلا ستر؛ أما إذا اتسعت القدرة فقد ينسى القلب افتقاره وهو يردد الشكر بلسانه. سورة النصر تعيد العبد إلى فقره في أجمل ساعات القوة.

النصر نعمة، والفتح نعمة، ودخول الناس في دين الله مما يفرح به المؤمن. وسورة النصر تعلّم القلب أن يحمل الفرح نقيًّا: الحمد يعيده إلى المنعم، والتسبيح يحفظ الكمال لله، والاستغفار يبقي باب الافتقار مفتوحًا حتى في ساعة النجاح.

وهنا تتم المشاهد: لكل يوم بابه إلى الرب نفسه؛ للهزيمة محاسبتها وصبرها، وللانتظار ثباته، وللفقد صبره، وللعطاء شكره، وللتمكين أمانته، وللنصر تسبيحه وحمده واستغفاره. تتغير الأبواب، والمقصود واحد.

ولمن حمل همَّ الإسلام زمنًا طويلًا معنى آخر في هذا الختام: قد يقضي عمره بين يومٍ يراه الناس هزيمة ويومٍ يسمونه نصرًا، بين مشروعٍ يولد وآخر ينتهي، بين طلابٍ يقبلون وآخرين ينصرفون، بين أبوابٍ تفتح وأبوابٍ تغلق. فإذا صح الميزان لم يعد يسأل في آخر كل يوم: هل صارت الأيام لنا؟ فقط؛ بل يسأل قبل ذلك: هل بقيتُ لله وأنا أعبرها؟ هذا السؤال لا يبرد همَّ النصر؛ ينقيه من أن يبتلع صاحبه.

وآخر النافذة: ﴿الٓمٓ﴾

ومن هنا يحسن أن تكون آخر نافذة في الكتاب لا على يومٍ من الأيام، بل على من يملكها جميعًا.

منذ أول الرحلة رأينا مواقع تتغير: قوةً تظهر ثم تضعف، ومالًا يفتن ثم يذهب، وحصنًا يطمئن إليه صاحبه ثم يسقط، واستضعافًا يعقبه تمكين، ومنعًا يسميه الوحي فتحًا، ومهلةً لا تعني الرضا. وفي نهاية الطريق لا ينبغي أن يبقى القلب مأخوذًا بحركة المواقع؛ ينبغي أن يصل إلى من لا يتحرك ملكه بتغيرها.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: 26-27].

مالك الملك. هذه هي الكلمة التي تعيد كل قوة إلى أصلها. يؤتي وينزع. والملك الذي ملأ عينك ليس خارجًا عن ملكه، والقوة التي أخافتك ليست شريكًا له، والسبب الذي اعتمدت عليه لا يستقل بتأثيره من دونه. قال الطبري في الآية: هو مالك ملك الدنيا والآخرة خالصًا دون غيره، يعطي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء.

ثم لا تقف الآيات عند حركة الملك بين الناس؛ تمتد إلى حركة الليل والنهار، والحياة والموت، والرزق. كأن القلب بعد أن تتبع حركة الأيام في التاريخ يُرد إلى مشهد أوسع: الكون نفسه يتقلب بأمر الله، ولا يخرج شيء من هذه التحولات عن قدرته.

وعند هذه النافذة يجد العبد ما يكفيه للسكينة. لا يحتاج إلى خارطة الأيام حتى يثبت؛ يكفيه أن يعرف مالك الملك. ما خفي عنه معلوم عند العليم، وما عجز عنه تحت قدرة القدير، وما لم يدرك حكمته لم يخرج عن حكمة الحكيم. تتبدل المواقع، ولا يتبدل ربه.

كان السؤال أول الرحلة: كيف تقرأ ما تراه؟ ثم اتسع إلى السبب والهزيمة والمهلة والمسار والعاقبة، حتى انتهى إلى السؤال الذي يحتويها كلها: من الذي تعبده وأنت ترى؟

فإذا جاء يوم تحبه فاشكر، وإذا جاء يوم تكرهه فردّ علم الخير إلى الله واثبت. وإذا عرفت السبب فاعمل وأصلح، وإذا خفيت الحكمة فقف عند علمك وسلّم للعليم الحكيم. وإذا طال الطريق فاصبر، وإذا أوتيت قوة فقم بحقها، وإذا جاء الفتح فاسجد وسبّح واحمد واستغفر. تتغير الأيام، ويبقى اسمك الأصدق في كل يوم: عبدٌ لله.

وعندئذ لا تكون أعظم ثمرة لهذه القراءة أن يصير الإنسان أقدر على توقع حركة الأيام، بل أن يصير قلبه أقل قابلية لأن تستعبده الأيام.

يراها كما هي: يتألم ولا يستعبده الألم، ويفرح فيرد فرحه إلى المنعم، ويعمل في أسبابها بقوة، ثم يقف عند حد علمه بأدب. ويبقى قلبه لله: العليم بما لا تعلم، القدير على ما لا تقدر، الحكيم في تدبيره، مالك الملك، ربك في القوة والضعف. فإذا جاء نصر الله والفتح: ﴿حمٓ﴾.

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية
- **سلسلة موازين القرآن** — السلسلة الحالية
- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر
- سلسلة حقوق وفضائل
- سلسلة طبائع النفس